الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون- تيارت-

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

دروس في مادة علوم القرآن

لطلبة السنة الأولى من الطور الأول ليسانس في ميدان اللغة والأدب العربي

-السداسي الأول-

إعداد الأستاذ: د. سبع بلمرسلي

السنة الدراسية 2018-2019

مقدمـــــــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين، وبعد:

تأتي هذه المذكرة جامعة لسلسلة من الدروس التي ألقيتها على طلبة السنة الأولى من الطور الأولى ليسانس في ميدان اللغة والأدب العربي في مادة علوم القرآن، وفق البرنامج الوزاري المقرر، وهي مادة استكشافية مبرمجة في السداسي الأول الغرض منها تزويد الطالب ببعض المعارف والمهارات المكملة لما هو أساسي من وحدات في التكوين، والتي تعينه على الفهم، خاصة وهو ينتقل بعد عام الجذع المشترك إلى مرحلة التخصصية..

ولأن القرآن الكريم هو المصدر الأول للغة العربية وما يتفرع عنها من فنون، فإن الحاجة إليه وما تعلق به من علوم تبقى ما بقي هذا اللسان وما خُطَّت حروفه بالبنان، فكيف إذا كان الدارس للسان ممن ينشد التعمق والتخصصية فيه؟ ! وليس اللغوي فقط من يحتاج إلى علوم القرآن، بل إن الناقد والأديب أيضا يحتاجان إلى الدرس القرآني في تحليل النصوص والخطابات، وفي إنتاج الآداب والمعارف..

وقد حرصت في كتابة هذه الملخصات لتلكم الدروس على الإيجاز وبساطة الأسلوب، مركِّزًا على الأهم في كل موضوع من موضوعات المقرر الدراسي، مجتهدا في توثيق المعلومات وعزوها إلى أصحابها، على ما تقتضيه المنهجية العلمية في التوثيق، ولم أتصرف قطّ في البرنامج بالحذف والإنقاص، وأما بالزيادة فنعم، وذلك في موضعين اثنين، الأول في محور التعريفات، الذي اقتُصِر فيه على التعريف بأهمية القرآن وأثره في الدراسات اللغوية والأدبية، فزدت إليه التعريف ببعض المصطلحات التي لا بدّ منها في البداية، كمصطلحات القرآن، وعلوم القرآن، والوحي، والمعجزة، والنبوة..وأما الثاني ففي محور الإعجاز القرآني، بإضافة مقدمة جعلتها لبيان مفهوم الإعجاز القرآني، وإثباته والوجه فيه، والقدر المعجز من القرآن، وذلك قبل ولوج عنصري الإعجاز اللغوي والبياني والإعجاز التشريعي..كما تصرفت بالتقديم في عنصر واحد أشرت إليه في موضعه، لتلاؤمه مع عنصر سابق تفاديا التكرار..

وختمت هذه المذكرة بثبت لقائمة المصادر والمراجع التي استعنت بها في إنجاز هذه الدروس، والتي تنوعت فكان منها القديم والحديث. والله أسأل أن ينتفع طلبتُنا بالمكتوب، وأن يتجاوز عن الكاتب سهوه وتقصيره، وأن يغفر له الذنوب. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

الدرس الأول

مفاهيـــم وتعريفات

1 -أهمية القرآن في الدراسات اللغوية والأدبية[1]:

لا يخفى على كلِّ مهتمٍّ بميدانِ اللغةِ والأدبِ العربيين ما للقرآن من أهميةٍ فيهما وأثرٍ في تطورهما، فبفضل القرآنِ الكريمِ وحفظِ الله –عزّ وجلَّ– إيَّاهُ حُفِظت اللّغةُ العربيةُ من الضياع، قال –تعالى–:﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ [الحجر: ٩]، وبهِ تقوَّت وارتقَت نحو الكمالِ، واتَّحدت لهاجاتُها، فخلَّصها من اللهجاتِ القبليَّةِ الكثيرةِ، وتحوّلت اللّغةُ العربيةُ بسبب انتشارِ الإسلام إلى لغةٍ عالميةٍ، بعد أن كانت لغة قومٍ معزولين أهلِ أميةٍ وبداوةٍ، لم يعرفوا العلمَ ولا الحضارةَ، وصارت أقوى لغةٍ في التواصلِ لما تحملُ من قوةٍ تعبيريَّةٍ لفظيةٍ ومعنويةٍ، وطاقةٍ أسلوبيةٍ وجماليةٍ، فأضحت لغةً مضبوطةً بقواعدِها النحوية والإملائية والبلاغية.. بل وصار كلُّ فنٍّ من فنونِها عِلمًا متميِّزًا قائمًا بذاته!.

ومن مظاهرِ أهمية القرآنِ في الدرسيْن اللغويِّ والأدبيِّ ذلك التأثُّرُ الواضحُ للشعراءِ والخطباءِ والكتَّابِ بأسلوبِهِ وطرائقهِ في التعبيرِ، فقد راحوا يقتبسون منه في منظومهم ومنثورهم، ويجتهدون في الإفادة منه في تآليفهم وآدابهم..وكيف لا يتأثّر الأدبُ به والقرآنُ هو مَن رفعَ من قيمةِ النَّثرِ بعد أن كان المقام الأوّلُ للشعر.. وهو مَن أحيا فنونًا أدبيةً جديدةً كالقصصِ ، وأدبِ الزُّهد، وأدبِ التأريخ.. وكيف لا، وقد شاع في أساليبِ الشعراءِ والكُتَّابِ والأدباء بفضلِ القرآنِ قوَّةُ الحجَّةِ والإقناعِ، وروعةُ التأثيرِ والإمتاعِ، والتفنُّنُ في الأساليبِ وصونِها وإحكامِ نظمها !..

وملا محُ هذا التأثُّر والتأثيرِ برزت منذ القرن الأول الهجري، إذ دفعَ القرآنُ الكريمُ المسلمين إلى تتبُّعِ اللغةِ، وجمعِ شعرِها وحِكَمِها وأمثالِها، ووصاياها وخُطَبِها من العربِ الموثوقين، حتى يستطيعوا فهمَ غريبِهِ، ويتبيَّنوا أساليبَه.. وقد جمعوا مئاتِ الكتبِ والرسائلِ التي صارت بعد ذلك مرجعًا في دراسة اللغة وآدابها. كما أنّ اشتمالَ القرآنِ الكريمِ على صورِ البيانِ الرائعِ والأساليبِ الفنيَّةِ الجميلةِ كان سببًا في نشأةِ علم البلاغةِ والنقدِ الأدبيِّ! ..

2 -مفهوم القرآن:

أ –**لغة**: اختلف في لفظ (القرآن)، فقيل هو[2]:

- اسمٌ عَلَمٌ وُضِع لكتابِ اللهِ –تعالى–، فهو جامدٌ غير مشتقٍّ.

---

[1] راجع في هذا: المعجزة الخالدة: د.حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر الإسلامية، بيروت،لبنان، ط1994/3، ص371-383.

[2] راجع في المفهوم اللغوي للقرآن: علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير، محمد صفا حقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2004/1، ص32-39. وانظر مادة (قَرَأَ) في: لسان العرب: ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، ط1414/3هـ، ج1/128-129.

- اسمٌ مشتقٌّ:

– مهموزٌ من الفعلِ (قرأَ) بمعنى (تَلَا)، مرادفٌ للقراءةِ، جاء على وزن (فُعْلان) كالغُفران والشُّكران،والرّجحان..ومنه قوله تعالى:﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[الإسراء: ٧٨]

– مهموزٌ من الفعلِ (قَرأَ) بمعنى (جَمَعَ)، ومنه لفظ (القُرْء) لاجتماع الدم في الرَّحِم. فيكون لفظ (القرآن) دالا على جمع الحروف بعضها إلى بعض، أو لأنه جمع السُّوَر، وجمع الوعدَ والوعيدَ، وجمع ثمرَة الكُتبِ السّماويةِ السابقةِ.

– غيرُ مهموزٍ، من الفعلِ(قَرَى أو قَرِيَ) والمصدرُ (القَرْي أو القَرَى) الذي يعني (الجَمْع)، يقال: قَرَى الماءَ في الحوضِ قريًا وقَرًى، إذا جمعَهُ. ومنه (القَرْيَة) سُمِّيَت كذلك لاجتماع الناس فيها.

أو هو مِن الفعل (قَرَنَ) والمصدر(القَرنُ) أو(القِرَان) الذي يعني (الجَمْع) و(الضَّمّ)، ومنه قولك:(قرَنْتُ البعيرَيْنِ) إذا جمعتَ بينهما في حبلٍ واحدٍ.

والمختار أن لفظ (القرآن) مشتقٌّ مهموزٌ من الفعل (قرأَ) بمعنى (تَلاَ) فهو مصدرٌ مرادفٌ للقراءةِ، جاء على وزن (فُعْلَان) كـ (غُفران- وشُكران) لكثرة قراءته وترداده، ومنه قوله- تعالى-: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ [القيامة: ١٧ – ١٨] . ثمّ نُقِل هذا المعنى المصدريّ وجُعِل اسمًا للكلامِ المُعجِزِ المُنَزَّل على النَّبيِّ- صلّى الله عليه وسلّم-، وذلك من باب إطلاقِ المصدرِ على مفعولِهِ.

ب **اصطلاحا**: هو كلامُ الله -تعالى- المنزَّلُ على قلبِ محمَّدٍ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- بواسطةِ جبريلَ-عليه السّلام-، المعجزُ بلفظهِ ومعناهُ، المُتَعَبَّدُ بتلاوتِهِ، المنقولُ بالتَّواترِ، المُدَوَّنُ بينَ دفَّتَي المصحفِ[1].

3 -**علوم القرآن:**

عرّفهُ الإمام الزرقاني بأنه: مباحثُ تتعلَّقَ بالقرآنِ الكريمِ من ناحيةِ نُزولِهِ وترتيبِهِ وجمعهِ وكتابتِهِ وقراءتِهِ وتفسيرِهِ وإعجازِهِ وناسِخِه ومنسُوخِهِ ودفعِ الشُّبهِ عنه وغير ذلك[2].

ويمكنُ تعريفهُ أيضاً بالقولِ: إنّه مباحثُ كلِّيَّةٌ تتَّصِلُ بالقرآنِ الكريمِ من نواحٍ شتَّى، يمكِنُ اعتبارُ كلِّ مبحثٍ منها فنًّا مستقلًّ متميِّزًا[3].

---

[1] ينظر: مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط1977/10، ص21.

[2] مناهل العرفان في علوم القرآن: الزرقاني، محمد عبد العظيم، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي،د/ط-ت، ج1/ص27.

[3] ينظر: فنون الأفنان لابن الجوزي، تحقيق: د.حسن عتر، دار البشائر الإسلامية،ط 1987/1، ص71. وذكر أن أول كتاب أُلِّف في علوم القرآن هو" عجائب علوم القرآن" للإمام أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري" المتوفى سنة 328هـ. ينظر: المصدر نفسه: ص73-74.

وهذه المباحثُ يمكِنُ حصرُها في محاوِرَ ثلاثةٍ هي[1]:

- ما يتعلَّقُ بالجانبِ التاريخي: كعلمِ أسبابِ النزول، وجمعِ القرآن، وعلمِ المكيِّ والمدنيِّ..
- ما يتعلَّقُ بجانبِ أداءِ القرآنِ: كعلمِ القراءاتِ، وعلمِ الوقفِ والابتداء..
- ما يتعلَّقُ بالنَّصِّ القرآنيِّ مباشرةً ويُعينُ على فهمِهِ: ويشملُ بقيةَ العلومِ كعلمِ المطلقِ والمقيَّد، والعامِّ والخاصّ، وعلم التفسيرِ وأصولِه، وعلمِ الإعجازِ..

4 -**الوحي**:

أ -**لغة**: الإعلامُ في خفاءٍ وسرعةٍ، ومنه[2]:

- الإلهامُ الفِطريُّ للإنسانِ كالوحيِ لأمِّ موسى –عليه السلامُ–، قال– تعالى–: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ ﴾ [القصص: ٧].
- الإلهامُ الغريزيُّ للحيوانِ كالوحي للنَّحلِ، قال– تعالى–: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل: ٦٨].
- الإشارةُ السريعةُ على سبيلِ الرَّمزِ والإيحاءِ، قال –تعالى– عن زكريّا– عليهِ السّلامُ–: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ ﴾ [مريم: ١١] .
- وسوسةُ الشيطانِ وتزيينُهُ الشَّرّ في نفسِ الإنسانِ، قال –تعالى–:﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ ﴾[الأنعام: ١٢١]، وقال:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ ﴾[الأنعام: ١١٢].
- أمرُ اللهِ يلقيهِ إلى ملائكتِهِ ليفعلوهُ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾[الأنفال: ١٢]

5 -**المعجزة**[3]:

أ -**لغة**: (المعجزةُ) من الفعل (أعجزَ) الذي مادَّتُه (عَجَز)، و(العَجزُ) ما يقابلُ (القُدرة). والأصلُ أن يقالَ عن الشيءِ: إنَّه مُعجِزٌ، وما الهاء الزائدة في (مُعجِزَة) إلاّ للمبالغة.

---

[1] ينظر: علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير، محمد صفا حقي، ص 51.

[2] ينظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1985/15،ص32–33، والجداول الجامعة في العلوم النافعة: محمود بن عبد العزيز الفداغ،دار الدعوة، الكويت، ط1991/5، ص132.

[3] لم يستخدم القرآن ولا السنة لفظ (المعجزة)، وكان أول ظهوره عندما دوِّنَت العلومُ في نهاية القرن الثاني الهجري، وبخاصة علومُ العقائدِ، وكان المستعمل لفظ: الآية– والبيِّنة– والبرهان– والسلطان.

ب **اصطلاحا**: أمرٌ خارقٌ للعادةِ مقرونٌ بالتحدِّي، سالمٌ عن المعارضةِ، يُجرِيه اللهُ على يدِ نَبِيٍّ من أنبيائِهِ أو رسولٍ من رسُله، لإظهارِ صدقِ نبوتِهِ أو صحَّةِ رسالتِهِ.

ت **شروط المعجزة**:

- أن يكون أمراً خارقاً للعادةِ، كعدم إحراقِ النار إبراهيم –عليه السلام–[1].
- أن تكون على يدي نبيٍّ أو رسولٍ يتحدَّى بها مَن وصلت إليهم الدعوةُ.
- أن تَعجَز الأمَّةُ عن الإتيانِ بمثلها على الصورة التي كان التَّحدِّي بها.
- أن يكون الخارقُ من صنع الله–تعالى– وإنجازه، قال –سبحانه–:﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافر: ٧٨].

6 –**النُّبُوَّة**[2]:

أ –**لغة**: من (النَّبأ) وهو الخَبرُ، أو من (النَّبَوَة) أو(النَّباوة) وهي الشيءُ المرتفِعُ. والنبيُّ مُخبِر عن الله –تعالى–، ومكانته عندهُ–سبحانه– عاليةٌ، إذ شرَّفَه بالنُّبوَّة عن سائرِ الخلقِ.

ب **اصطلاحا**: اصطفاءُ الله– تعالى– لعبدٍ من عبادهِ بوحيٍ.

سؤالٌ للبحث: ابحث في الفرق بين المعجزة والكرامة، وبين النبيِّ والرَّسول.

[1] إذا كان الخارقُ غيرَ مقرونٍ بالتحدي فهو من دلائل النبوة أو الرسالة، وأما إن كان قبل النبوة فهو من إرهاصاتها.

[2] لسان العرب: ابن منظور، ج1/162–163، مادة (نبأ)، ودلائل النبوة: الأصبهاني موفق الدين، أبو القاسم إسماعيل بن محمد، تحقيق: مساعد بن سليمان الحميد، دار العاصمة، الرياض، السعودية، ط1/1412هـ، ج1/19–24.

الدرس الثاني: تاريخ القرآن

أوَّلا: نزول القرآن

1 **-كيفية وحي الله –تعالى- إلى أنبيائه ورسله[1]:**

يوحي الله- تعالى- إلى أنبيائه ورسله –عليهم السلام- بأحد طريقين:

- بواسطة الملك جبريل –عليه السلام-، وقد اختلف العلماء في كيفية تلقيه-عليه السلام- الوحي من الله – تعالى-على أقوال ثلاثة[2]:
  - أنه تلقفه –عليه السلام- من الله-تعالى- سماعا بلفظه المخصوص.
  - أنه حفظه-عليه السلام- من اللوح المحفوظ.
  - انه ألقي إليه من الله -تعالى- المعنى، والألفاظ له أو لمحمد–صلى الله عليه وسلم-.

والرأي الأول هو الصواب، وهو ما عليه أهل السنة والجماعة، ويؤيِّدُه حديثُ النّوَّاس بن سمعان- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم-": إذا أراد اللهُ -تعالى-أن يوحيَ بالأمرِ تكلَّمَ بالوحيِ، أخَذتِ السمواتُ منه رجفَةٌ-أو قالَ رعدةٌ- شديدةٌ خوفاً من الله-عزَّ وجلَّ-، فإذا سمعَ ذلك أهلُ السموات صُعِقُوا وخرُّوا لله سجَّدًا، فيكونُ أوَّلُ من يرفعُ رأسَهُ جبريلُ، فيكلمُهُ اللهُ من وحيِهِ بما أرادَ، ثمّ يمرُّ جبريلُ على الملائكةِ، كلَّما مرَّ بسماءٍ سألهُ ملائكتُها: ماذا قال ربُّنا يا جبريلُ؟ فيقولُ جبريلُ: قالَ الحقَّ وهو العليُّ الكبيرُ. فيقولون كلُّهم مثلَ ما قالَ جبريلُ، فينتهي جبريلُ بالوحيِ إلى حيثُ أمَرَهُ اللهُ -عزَّ وجلَّ- "رواه الطبراني.

- بغير واسطة، وتشمل:

أ -الرؤيا الصالحة في المنام، وقد ثبت عن عائشة –رضي الله عنها- أنها قالت: "أولُ ما بدئ به –صلى الله عليه وسلم- الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح"(متفق عليه).

ب التكليم الإلهي من وراء حجاب يقظةً، كما أخبر بذلك –سبحانه- في تكليمه موسى- عليه السلام- في قوله:﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤][1] .

---

[1] تنظر هذه الطرق وأدلتها في: الإتقان في علوم القرآن (وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني): السيوطي، مطبعة حجازي، القاهرة،د/ط-ت، ج1/45-46 ، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص 38-39.

[2] تراجع الأقوال والترجيح بينها في: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص35-36

وقد جمع الله –تعالى– هذه الطرق التي هي في المحصلة ثلاثة في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى: ٥١].

2 -**كيفية نزول جبريل –عليه السلام– بالقرآن على النبي–صلى الله عليه وسلم–:**

أخبر النبي– صلى الله عليه وسلم– بكيفية نزول الملك جبريل–عليه السلام– بالقرآن إليه، وأنه كان يأتيه في إحدى صورتين[2]:

- الأولى: أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، وهو أشدَّه عليه–صلى الله عليه وسلم–، لأن هذه الحالة انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية، والحالة الثانية عكسها، لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية[3].
- الثانية: أن يتمثل له الملك رجلا ويأتيه في صورة بشر، وهي أخفُّ عليه– صلى الله عليه وسلم–، وكان غالبا ما يتمثل له في هيئة الصحابي الجليل دحية الكلبي[4].

وفي الصورتين روتْ أمُّ المؤمنين عائشةُ– رضي الله عنها– أن الحارثَ بنَ هشام –رضي الله عنه– سأل النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– فقال: يا رسولَ الله، كيف يأتِيكَ الوحيُ؟ فقال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم–: أحيانًا يأتيني مثلَ صلْصَلَة الجرسِ، وهو أشدُّه عليَّ، فيُفْصَمُ عنِّي وقد وعيتُ عنه ما قالَ. وأحيانا يتمثَّلُ لي الملكُ رجلاً فيكلِّمُني فأَعِي عنه ما يقُولُ" (رواه البخاري).

3 -**تنزُّلاتُ القرآن الكريم:**

يمكن إجمال تنزلات القرآن الكريم في ثلاثة هي[5]:

---

[1] وتكليم الله تعالى رسوله–صلى الله عليه وسلم– ليلة الإسراء والمعراج من هذا القبيل. ينظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص38.

[2] ينظر : الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ج1–ص45–46، والجداول الجامعة في العلوم النافعة: محمود الفداغ، ص132.

[3] ينظر: البرهان في علوم القرآن: الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط 1984/3، ج229/1. ونسب مناع القطان ذلك إلى ابن خلدون في المقدمة، وبيّن أن ليس المراد أن يتخلى أحدهما عن طبيعته الروحانية أو البشرية إلى الأخرى. ينظر: مباحث في علوم القرآن: ص39.

[4] ينظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2001، ج2/551–552. وأورد أحاديث عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– في ذلك.

[5] القول بثلاثة تنزلات هو الأصح والأشهر الذي عليه الجمهور، ينظر: مناهل العرفان: ج 1/39–42، والبرهان في علوم القرآن: ج1/228–229 ، والإتقان في علوم القرآن:ج1/40–41، والجداول الجامعة في العلوم النافعة: ص133.

- التنزّل الأول: إلى (اللوح المحفوظ) بطريقة ووقت لا يعلمهما إلا الله ومَن أطلعه على غيبه، وكان جملة لا مفرَّقًا، وهو الظاهر من قوله تعالى:﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البروج: ٢١ – ٢٢].
- من (اللوح المحفوظ) إلى (بيت العزَّة) في السماء الدنيا في ليلة واحدة، وقد أخبر بذلك –سبحانه– في قوله: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، وقوله:﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ [القدر: ١]، وقوله:﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الدخان: ٣].
- من السماء الدنيا من (بيت العزة) إلى الأرض على قلب خاتم الأنبياء والمرسلين محمد– صلى الله عليه وسلم– منجّما في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث. قال–تعالى–: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥].

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– موقوفا[1]:" أُنزِلَ القرآنُ جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا ليلةَ القدر، ثم أُنزِل بعد في عشرين سنةً[2] ثم قرأ: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٣]، وقوله:﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٦]" .

4 –**الحكمة من نزول القرآن الكريم منَجَّماً:**

ثبت أن القرآن الكريم نزل على قلب الرسول –صلى الله عليه وسلم– منجما خلال ثلاثة وعشرين عاما، لا جملة واحدة، للحكم الآتية[3]:

1 –تثبيتُ قلبِ الرسولِ –صلى الله عليه وسلم–، لقوله –تعالى–:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٢]، حيث إن في تجدُّد نزول الوحي تجددٌ للسرور الذي يملأ قلبَه –عليه السلام–، وفي كل نوبة من نوبات التنزيل معجزةٌ جديدة غالبا، ولا شك أن المعجزة تشدُّ أزرَه – صلى الله عليه وسلم–. كما أن في تأييد الحق ودحض الباطل مع كل نزول تكرارا لانتصار الحق وانهزام الباطل بما يشجع النفس ويقوي القلب. وفيه أيضا تعهد من الله –تعالى– لنبيِّه– عليه السلام–عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه، بما يهوِّن عليه هذه الشدائد، قال –تعالى–:﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[هود:

---

[1] الحديث الموقوف ما انتهى سنده إلى الصحابي و لم يرفعه إلى النبي– صلى الله عليه وسلم–.

[2] القول بنزول القرآن في عشرين سنة مبني على القول بأن النبي–صلى الله عليه وسلم– مكث بعد البعثة في مكة عشر سنين، ثم هاجر. وأما القول بثلاث وعشرين سنة فعلى أنه مكث بمكة ثلاث عشرة سنة، إذ الاتفاق حاصل على أن مدة بقائه بالمدينة حتى وفاته –عليه السلام– هي عشر سنين. ينظر: مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، ص50.

[3] تراجع هذه الحكم في: مناهل العرفان: ج 1/48–54، ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، ص 49–62، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص107–117.

١٢٠]، وقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾ [المائدة: ٦٧].

2 -تيسير حفظه وفهمه لأن العرب أمَّة أمية، قال –تعالى-:﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢ ﴾ [الجمعة: ٢] ،

3 -مسايرة الحوادث والوقائع: فقد كان القرآن ينزل بالتوجيهات في الوقائع والأقضية للقضايا والنوازل في حينها، وليس جملة واحدة، ولا شك أن ذلك أوقع في النفوس وأدلّ على ربانية مصدر القرآن وصدق النبوة، كما في حادث الإفك مثلا أو قصة المرأة المجادلة وغيرهما..وفيه أيضا كشف لأحوال المنافقين وغيرهم من أعداء الله للرسول- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، فضلا عن لفت أنظار المسلمين إلى أخطائهم ووجوب تصحيحها، مثلما في التعقيب القرآني على كثير من الغزوات كغزوة بدر وأحد والأحزاب وحنين..قال –تعالى-:﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]

4 -التدرج في تربية الأمة المسلمة الناشئة عقيدة وشريعة، علما وعملا، بتخليتهم من العقائد الباطلة والعبادات الفاسدة والعادات المرذولة، وتحليتهم بالعقائد الحقَّة والعبادات الصحيحة والأخلاق الفاضلة، ومن أمثلة التدرج في التشريع التدرج في تحريم الخمر والتدرج في أحكام الجهاد وفي كثير من أحكام الأسرة..

5 -تحقق معنى التحدي والإعجاز، والدلالة القاطعة على أن القرآن من عند الله، قال- تعالى-: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢ ﴾ [النساء: ٨٢] ، وقال:﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ ﴾ [هود: ١]، وقال:﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦ ﴾ [الفرقان: ٥ – ٦] .

الدرس الثالث: تاريخ القرآن

ثانيا: جمع القرآن وترتيبه

أوَّلاً: جمع القرآن

1 -**المراد بجمع القرآن**: يراد به أحد معنيين[1] :

الأول: جمعه بمعنى حفظه، وجُمَّاعُ القرآن حُفَّاظُه، وهذا المعنى هو الذي في قوله-تعالى-: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٧ – ١٨]. **والثاني**: جمع القرآن بمعنى كتابته كلّه في صحائف مجتمعة تضمُّ السّور والآيات جميعَها.

2 -**عصور جمع القرآن:**

- **الجمع الأول: في عهد الرسول –صلى الله عليه وسلم-**[2]:

أ -**حفظه في الصدور**: أول الحفاظ والقراء هو الرسول –صلى الله عليه وسلم-، فقد كان يترقب نزول القرآن بشوق ويتعجل قراءته حتى طمأنه الله -تعالى- في قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة: ١٦ – ١٩]. ثم اقتدى به –صلى الله عليه وسلم- الصحابةُ -رضوان الله عليهم- في حفظهم للقرآن، فكان كلما نزلت آية حُفِظت في الصدور، ووعتها القلوب، وقد كانت الأمة العربية بسجيتها قوية الذاكرة تستعيض في أميتها في كتابة أخبارها وأشعارها وأنسابها بسجل صدورها. ولذلك فقد حفظ القرآن عدد كبير من الصحابة [3]، إذ ورد في الأحاديث أنه قتل زمن النبي –صلى الله عليه وسلم- من القراء سبعون في حادثة بئر معونة في السنة الرابعة من الهجرة، كما قتل في اليمامة زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه سبعون أيضا. ولقد كان حرص الصحابة شديدا على مدارسة القرآن وإحياء ليلهم بتلاوته، وكان الرسول –صلى الله عليه وسلم- يشجعهم بالاستماع إليهم.

ب **كتابته في السطور**: اتخذ النبي –صلى الله عليه وسلم- كُتَّابًا للوحي من أجل الصحابة منهم عليٌّ بن أبي طالب وأُبَيٌّ بن كعب وزيدٌ بن ثابت ومعاويةُ بن أبي سفيان- رضي الله عنهم- وغيرُهم [4]..فكانوا يكتبون ما يأمرُهم به

[1] ينظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص 118-119، ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، ص 65 وما بعدها.

[2] ينظر: مناهل العرفان: الزرقاني، ج1/ ص198

[3] كان الحفاظ للقرآن من الصحابة، الرجال والنساء، زمن الرسول-صلى الله عليه وسلم-كثر، واشتهر منهم خَلْقٌ حفظًا وكتابةً وإقراءً. ينظر: مناهل العرفان: ج199/1، مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، ص65-69.

[4] انظر ما قيل في عدد كتاب الوحي والروايات الواردة في ذلك في: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص119-123.

النبي –صلى الله عليه وسلم– بكتابته ويضعونه في موضعه الذي يشير إليه. وكان بعضٌ آخر من الصحابة يكتب القرآن ابتداءً من أنفسهم دون أن يأمرهم الرّسولُ –صلى الله عليه وسلم– بذلك، وتُقيَّدُ الكتابةُ على العُسُب واللِّخَاف والرِّقاع والأَقْتَاب والأَكْتَاف [1]..وكانوا يعرضون ما لديهم من القرآن على الرسول– صلى الله عليه وسلم– حفظا وكتابة، وعرضَ زيدٌ بن ثابت–رضي الله عنه– على الرسول –صلى الله عليه وسلم– متأخرا ما جعل أبا بكر الصديق وعثمان بن عفان –رضي الله عنهما– يختارانه بعد ذلك لجمع القرآن.

وتوفي الرسول–صلى الله عليه وسلم– والقرآن كلُّه محفوظٌ في الصّدور ومكتوبٌ في السّطور بالأحرف السبعة الواردة، ولم يُجْمَع في مصحف واحد لأنّه–صلى الله عليه وسلم– كان يترقّب الوحي بين فترة وأخرى[2].

- **الجمع الثاني: في عهد أبي بكر الصديق–رضي الله عنه–**

أ –الداعي إلى الجمع:

واجهت أبا بكر الصديق– رضي الله عنه– عند تولّيه الخلافةَ أحداثٌ جسام أعظمُها ارتدادُ بعض القبائل من العرب عن الإسلام، فجهَّز الجيوش لمحاربتهم، ومن معاركه ضدّهم معركة (اليمامة)التي استُشهِد فيها عددٌ كبير من الصحابة، منهم سبعون من القرّاء ! ما جعل عمر بن الخطاب يشير على أبي بكر بجمع القرآن وكتابته خشية الضياع والنسيان، إلّا أن أبا بكر نفَر أوَّلَ الأمر، وقال: كيف أفعلُ أمراً لم يفعلْه رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم–؟ فقال له عمرُ: ذلك والله خيرٌ ! وما يزال عمرُ يراوده حتى شرح الله صدر أبي بكر لما شرح به صدر عمر. فأرسل إلى زيد بن ثابت وأشار عليه بجمع القرآن، فرفض أول الأمر، إلا أن أبا بكر الصديق أخذ يبيِّنُ له هذا العمل الذي فيه خيرٌ ومصلحةٌ للمسلمين، حتى شرح الله صدرَ زيدٍ لما شرح به قلبَيْ عمرَ وأبي بكر[3].

ب منهج زيد بن ثابت في جمع القرآن:

كان منهج زيد –رضي الله عنه– في تتبعه وجمعه للقرآن من العُسُب واللِّخاف وصدور الرِّجال أن يسمع من الرِّجال ثم يعرض ما سمع على المكتوب، ولم يقبل من أحد شيئا من القرآن سمِعَه منه ووافق المكتوبَ على العُسُب واللِّخاف حتى يَشهَد على ذلك شاهدان زيادةً في التحفُّظ مع أنه كان من الحَفَظَة[4].

---

[1] العُسُب:جمع عَسِيب، وهو جريد النخل، واللِّخَاف:صفائح الحجارة،جمع لَخْفَة، والرِّقاع، جمع رقعة، وتكون من جِلد أو وَرَق، والأكتاف:عظام الأكتاف

[2] ينظر: الإتقان في علوم القرآن، ص377، ومناهل العرفان: ج1/ص204.

[3] ينظر: البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج1/ص233–234، الإتقان في علوم القرآن: ص379، ومناهل العرفان: ج1/ ص204–206.

[4] ينظر:مناهل العرفان:ج1/ص206–207،ومباحث في علوم القرآن:مناع القطان،ص 126–127،مباحث في علوم القرآن:صبحي الصالح،ص 75–76

وبهذا التثبت والتحفظ تمَّ جمعُ القرآن زمنَ أبي بكر الصِّديق في مصحفٍ واحدٍ مرتَّبِ الآيات والسّور مشتملا على الأحرف السّبعة، مقتصرا على ما لم تنسخ تلاوتُه، فكان أبو بكر بذلك أوّلَ من جمع القرآن بهذه الصفة، قال عليٌّ– رضي الله عنه–: "أعظمُ الناس أجْرًا في المصاحف أبو بكر، رَحِمَ اللهُ أبا بكر هو أوّلُ من جمع كتاب الله"[1]. ثم انتقل هذا المصحف بعد وفاة أبي بكر إلى عمرَ بن الخطاب حتى توفي، فكان بعد ذلك عند ابنتِهِ حفصةَ أُمِّ المؤمنين –رضي الله عنهم أجمعين–[2].

- **الجمع الثالث: في عهد عثمان بن عفان–رضي الله عنه–**

أ –الدّاعي إلى الجمع:

كان الداعي إلى جمع القرآن في مصحف واحد زمن الخليفة عثمان –رضي الله عنه– اختلاف الأمة في قراءة القرآن، فكل مصر من الأمصار يقرأ بقراءته التي تلقَّاها من ذلك الصحابي عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ، وبلغ الخلافُ بينهم أشدَّه، وراح بعضهم يخطِّئُ بعضا، وكاد يكفِّرُ بعضُهم بعضًا، فبلغَ الخبرُ عثمانَ– رضي الله عنه–[3]، فأرسل إلى أمِّ المؤمنين حفصةَ : أن أرْسِلِي إلينا الصُّحفَ ننسخُها في المصاحف ثم نردُّها إليك، ففعَلَتْ.. فأمرَ زيدًا بنَ ثابت وثلاثةَ نَفَرٍ من قريش بنسخها في المصاحف[4].

ب منهج عثمان– رضي الله عنه– في جمع القرآن[5]:

– أمَرَ عثمانُ زيدًا وأصحابَه أن يجمعوا القرآن على حرفٍ واحدٍ من الأحرف السّبعة هو حرفُ قريش، وأن يرجعوا إليه في حال الاختلاف بينهم.

– كُتِب القرآنُ في مصحف واحد، وأمر بحرق بقية المصاحف بعد أن ردَّ إلى حفصةَ الصحفَ.

– أرسل إلى كل مصر من الأمصار مُصحَفا، والمشهور أن عددَها خمسة[6].

وهكذا تمَّ لعثمان –رضي الله عنه– جمعُ القرآن على قراءةٍ واحدةٍ بحرفٍ واحدٍ، وتلقَّت الأمة هذا العمل الجليل بالقبول،وتركت القراءة بالأحرف السِّتة الأخرى،واشتهر المصحفُ باسمِ المصحَفِ العثمانيّ أو المصحفِ الإِمَام

ت الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان للقرآن[1]:

---

[1] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص380، و مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص128.

[2] ينظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص126.

[3] الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان (كاتم سرِّ رسول الله)– رضي الله عنه– هو مَن أبلغ عثمان لما رأى من فتنة بين الناس في غزو أرمينية وأذربيجان بالشام. ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج1/ص236، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص128–129.

[4] الثلاثة هم: عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمان بن الحارث بن هشام. ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص388.

[5] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج236/1، ومناهل العرفان: ج1/ص211–212، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص128–129.

[6] ينظر الاختلاف والروايات في ذلك في : الإتقان في علوم القرآن: ص393.

1 -الباعثُ لدى أبي بكرٍ للجمع الخشيةُ من ذهابه بذهاب حَمَلَتِه، حين استمرَّ القتل بالقُرَّاء. بينما كان الباعثُ لدى عثمان كثرةَ الاختلاف في وجوه القراءة، حين بلَغَه اختلافُ الناس في القراءة وتخطئةُ بعضِهم بعضًا.

2 -فعلُ أبي بكر كان نقلًا لما كان مُفَرَّقًا في العُسُب والرِّقاع والأَقْتَاب والأكتاف، وجمعًا له في مصحفٍ واحدٍ مرتَّبِ الآياتِ والسُّورِ، مقتصِرًا فيه على ما لم تُنسَخ تلاوتُه، مشتمِلًا على الأحرُف السَّبعة التي نزلَ بها القرآنُ. أما جمعُ عثمانَ-رضي الله عنه- فكان على حرفٍ واحدٍ من الأحرفِ السّبعةِ هو حرفُ قريش، حتى يجمعَ المسلمين على مصحفٍ واحدٍ وحرفٍ واحدٍ دون ما عدَاهُ من الأحرُفِ السّتة.

[1] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج2/1ص235، والإتقان في علوم القرآن: ص391.

ثانيا: ترتيب سور وآيات القرآن[1]

1 -ترتيب الآيات:

ترتيب الآيات في القرآن الكريم توقيفي عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وقد قطع الزركشي بعدم الخلاف في ذلك وقال: "وأما ما يتعلق بترتيبه، فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خلاف فيه، ولذا لا يجوز تعكيسها "[2]، ونقل السيوطي الإجماع على ذلك في الإتقان وقال: "الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك. أما الإجماع فنقله غير واحد منهم الزركشي في البرهان "[3]، ونقله أيضا الزرقاني في المناهل[4].

ومن الأدلة على أن ترتيب الآيات توقيفي عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- عن جبريل –عليه السلام- عن ربِّه –عزّ وجلّ-[5]:

- إخبار جبريل –عليه السلام- رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بموضع الآية إذا نزلت، كما في حديث عثمان بن أبي العاص –رضي الله عنه- قال:" كنت جالسا عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم- إذ شَخَص ببصره ثمّ صَوَّبَه، ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ ﴾[6] " (رواه أحمد).
- ثبوت قراءة النبي –صلى الله عليه وسلم- لسورٍ عديدة بترتيب آياتها في الصلاة أو في خطبة الجمعة، كسورة البقرة وآل عمران والنساء والأعراف والسجدة والإنسان..
- وقوف عثمان -رضي الله عنه- عند كل آية في موضعها من سورتها في القرآن ولو كانت منسوخة حين جمعه، وقد سأله ابن الزبير –رضي الله عنه- عن قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا ﴾[البقرة: ٢٤٠] يثبته في القرآن وهو منسوخ؟ فقال:" يا ابن أخي لا أغيِّرُ شيئًا من مكانه"(رواه البخاري) [7].

السورة:الجملة من الآيات ذات المطلع والمقطع.والآية:الجملة من كلام الله المندرجة في سورة من القرآ ن.ينظر:مباحث في علوم القرآن: القطان،ص 139[1]

[2] ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج1/ص 256.

[3] الإتقان في علوم القرآن: ص394.

[4] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص394-404، ومناهل العرفان: ج1/ص 281.

[5] ينظر: مناهل العرفان: ج1/281-283

[6] الآية 90 من سورة النحل.

[7] والأية الناسخة هي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ ﴾ [البقرة: ٢٣٤]

- مجيء أ حاديث دالة على فضل آيات من سور بعينها، ويستلزم هذا أن يكون ترتيبها توقيفيا، من ذلك ما رواه أبو الدرداء–رضي الله عنه– من أن النبي–صلى الله عليه وسلم– قال: " مَن حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِم من الدَّجَّال"(رواه مسلم).
- ثبوت أن جبريل –عليه السلام– كان يعرض عليه النبيُّ–صلى الله عليه وسلم– ما اجتمع عنده من القرآن كل عام مرّة في رمضان، وفي العام الذي مات فيه عرضه عليه مرّتين، وكان العرض على الترتيب المعروف الآن والذي جمع عليه عثمان –رضي الله عنه– المصحف.

2 -**ترتيب السور**:

اختلف العلماء في ترتيب سور القرآن: هل هو توقيفي من الرسول –صلى الله عليه وسلم– أو اجتهادي من الصّحابة، أو يفَصَّل؟ ثلاثة أقوال[1]:

القول الأول: هو توقيفي عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كما أخبر به جبريل عن ربِّه –عزَّ وجلَّ–، ويستدلُّ أصحاب هذا القول بإجماع الصحابة على مصحف عثمان –رضي الله عنه– وعدم مخالفة أحد منهم، وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف، لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسَّكَ أصحاب المصاحف المخالفة بمصاحفهم[2].

ويؤيِّده أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يقرأ بعض السور مرتبة في صلاته، وأنه كان يجمع المفصَّلَ في ركعة، وأنه قال– كما في صحيح البخاري– في الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء: " إنهن من العتاق الأُوَّل، وهُنَّ من تلادي "[3] فذكرها نسقا كما استقرَّ ترتيبها. وأنه كان إذا آوى إلى فراشه كلَّ ليلة جمع كفيه –صلى الله عليه وسلم– ثم نفث فيهما فقرأ (قل هو الله أحدٌ) والمعوِّذتين. (رواه البخاري) [4].

القول الثاني: هو توفيقي، باجتهاد من الصحابة –رضي الله عنهم– [5]. وعمدة أدلتهم أمران، أولهما: اختلاف بعض الصحابة الذين كانوا يكتبون القرآن في ترتيب السور، فكان مصحف علي– رضي الله عنه– مرتبا حسب النزول: اقرأ–

[1] ينظر: البرهان في علوم القرآن:ج1/ص 257–260، مناهل العرفان: ج1/287–292، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص141–143

[2] ورأى البيهقي هذا الرأي إلا بين (براءة) و(الأنفال)، واختاره السيوطي. ينظر:الإتقان في علوم القرآن: ص411.

[3] العتاق الأول: الشيء العتيق، القديم، والتلاد: المال القديم، والمقصود إنهن مما أنزل أولا من القرآن.

[4] نقل السيوطي أدلة أخرى لهذا القول تراجع في: الإتقان في علوم القرآن: ص406–411.

[5] نسب الزركشي هذا القول إلى جمهور العلماء، ومنهم مالك. ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج1/ 257. قال محقق كتاب الإتقان(مركز الدراسات القرآنية) عن هذا القول: فيه نظر. ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص405 (الهامش).

المدثر– ن– المزمل– المسد.. ومصحف ابن مسعود: البقرة– النساء– آل عمران.. ومصحف أبي بن كعب: الفاتحة– البقرة– النساء– آل عمران..[1]

وثانيهما: حديث ابن عباس– رضي الله عنهما–: " قلتُ لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم)، ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال:كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل من المدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر(بسم الله الرحمن الرحيم)ووضعتها في السبع الطوال" (أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم). ووجه استدلالهم بهذا الحديث: كيف يكون ترتيب السور توقيفيا وعثمان– رضي الله عنه– لم يسمع في أمر الأنفال مع براءة شيئا؟[2].

القول الثالث: بعض السّور ترتيبُها توقيفي وبعضُها باجتهاد من الصحابة [3]، إذ وَرَد ما يدلُّ على ترتيب بعض السّور في عهد النبوة، كترتيب السبع الطُّوَل والحواميم والمفصَّل، وروي أنه –صلى الله عليه وسلم– قال: "اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران"(رواه مسلم).

ومن الأحاديث التي يستدلون بها أيضا حديث حذيفة الثقفي الذي جاء فيه:"فقال لنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : طرأ عليّ حِزْب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه، فسألنا أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قلنا: كيف تحزِّبُون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من (ق) حتى نختم"(رواه أحمد وأبو داود).

وهذا الحديث كما ذكر ابن حجر يحتمل الدلالة على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، كما يحتمل أن يكون المرتب حزب المفصل خاصة دون ما عداه[1].

---

[1] ورُدَّ هذا باحتمال عدم عودهم إلى صحفهم وترتيبها وفق العرضة الأخيرة. ويبدو أن هذا القول هو اختيار الزركشي في البرهان، ينظر: ج1/ص162، وهو ما فهمه صبحي الصالح أيضا وردَّه. ينظر: مباحث في علوم القرآن: ص71. لكن د.حازم حيدر فهم خلاف هذا، وأن الزركشي يميل القول بالتوقيف في ترتيب السور واستدل بقوله في البرهان: ج1/260:" لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم:..". ينظر: علوم القرآن بين البرهان والإتقان–دراسة مقارنة–، د.حازم سعيد حيدر، دار الزمان، المدينة المنورة، السعودية، د/ط، 1420هـ، ص197، 199..

[2] بيَّن الزرقاني ردود أصحاب القول الأول على هذه الشبهة والتث أقواها كون الحديث غير صحيح. ينظر: مناهل العرفان: ج1/293.

[3] وهو ما اختاره الزرقاني في المناهل، ينظر: ج1/ص290.

المختار من الأقوال:

ذهب الكثير من العلماء إلى أن الراجح في المسألة القول الأول[2]، وأن ترتيب السور توقيفي كترتيب الآيات، ومن الأقوال في ذلك[3]:

- قول أبي بكر بن الأنباري:" أنزل الله القرآن كلَّه إلى سماء الدنيا، ثم فرَّقه في بضع وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمرٍ يحدُث، والآية جوابًا لمستخبر، ويوقِفُ جبريلُ النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– على موضع الآية والسورة، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كلُّه عن النبي –صلى الله عليه وسلم–. فمن قدّم سورة أو أخَّرها فقد أفسد نظم القرآن".
- وقول الكِرْماني في البرهان[4]: "ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه كان صلى الله عليه وسلم يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين. وكان آخر الآيات نزولا(واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ) [البقرة: 281] فأمَرَه جبريلُ أن يضعها بين آيتي الرِّبا والدَّيْن".
- وقول الطِّيبِي[5]:"أُنزِل القرآن أولا جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقا على حسب المصالح، ثم أُثبِت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ".
- قول أبي جعفر النحاس: "المختار أن ترتيب السور على هذا الترتيب من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لحديث واثلة بن الأسقع: أعطيت مكان التوراة السبع الطُّوَل، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلْتُ بالمفصَّل"[6].(رواه أحمد)
- قول ابن الحصار: "ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي"[7].

---

[1] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص410–411، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص143.

[2] من الذين صرحوا بهذا الترجيح: صبحي الصالح في : مباحث في علوم القرآن، ص73، ومناع القطان في: مباحث في علوم القرآن: ص144.

[3] تراجع الأقوال في : الإتقان في علوم القرآن: ص406–411. وذكر بعضها مناع القطان في: مباحث في علوم القرآن: ص144–145.

[4] الكتاب هو: البرهان في ترتيب سور القرآن: ص،115، نقلا عن محقق: الإتقان في علوم القرآن: ص 407.

[5] في كتاب: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: ص09، نقلا عن محقق: الإتقان في علوم القرآن: ص 407.

[6] في كتابيه: القطع والإئتناف: ص82، والناسخ والمنسوخ: ج2/ص404، نقلا عن محقق: الإتقان في علوم القرآن: ص 409

[7] نقلا عن: الإتقان في علوم القرآن: ص 410.

الدرس الرابع

مكونات النص القرآني

أولا: السورة– الآية– الكلمة

يتألف القرآن من سور، والسورة من آيات، والآية من جمل وكلمات.

1 –**السورة:**

أ – **في اللغة**[1]: هي من الأصل المهموز(أَسْأَرَ) أي: أفضَلَ، من (السُّؤْر) وهو ما بقي من الشراب في الإناء. أو من الأصل نفسه من غير همز تسهيلا، و هو بمعنى الأول. وتكون السورة القرآنية بهذا المعنى القطعة من القرآن. وقد يكون أصلها الفعل (سَوَر)، ومنه (سُورَة البناء) وهي القطعة منه والمنزلة بعد المنزلة، والسورة قطعة من القرآن. ومنه أيضا (السُّور) لإحاطته بالشيء، و(السِّوَار) لإحاطته بالمعصم، و(سُورُ المدينة) لإحاطته بالمدينة واجتماع بيوتاتها داخلَه، فسميّت (السُّورَة) بذلك لإحاطتها بآياتها واجتماعها فيها. و(التَّسَوُّر) الصعود والركوب، ومنه قوله تعالى﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴾ [ص: ٢١]، فهي سورة لأنها مركبة من آيات.

ب **في الاصطلاح**: السورة قرآن يشتمل على آي ذي فاتحة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات. أو هي الطائفة المستقلة من آيات القرآن ذات المطلع والمقطع[2].

وقد اختص القرآن الكريم بكونه مُحَزَّبا ومفصَّلا سُوَرا، إذ لم تكن الكتب السابقة كذلك، كما أنها لم تكن معجزة من ناحية نظمها وترتيبها، ولا ميسَّرَة للحفظ[3].

ت **الحكمة من تقطيع القرآن سورا**[4]:

- حتى تكون كل سورة فنًّا مستقلا وقرآنا معتبرا، فتكون بمجردها معجزة.

---

[1] ينظر: تهذيب وترتيب الإتقان في علوم القرآن:محمد بن عمر بن سالم بازمول، دار الهجرة، الرياض، السعودية، ط 1992/1، ص13–14، والزيادة والإحسان في علوم القرآن: ابن عقيلة المكي، مركز البحوث والدراسات، الشارقة، الإمارات، ط 2006/1، ج 1/ص374–375، والبرهان في علوم القرآن: ج364/1، ومناهل العرفان في علوم القرآن: ج1/ص285.

[2] ينظر : البرهان في علوم القرآن: ج364/1، ومناهل العرفان: ج285/1

[3] ينظر : البرهان في علوم القرآن: ج364/1، ونقل عن الزمخشري أن الكتب السابقة التوراة والإنجيل والزبور كانت مقطعة سورا

[4] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج364/1، والإتقان في علوم القرآن: ص 429–430، ومناهل العرفان: ج1/ص285.

- التنبيه من خلال تقسيمها طوالا وقصارا وأوساطا إلى أن الطول ليس من شرط الإعجاز، إذ التحدي قائم ولو بأقصر سورة منه.
- التيسير على الناس وتشويقهم إلى تعلمه وتفهمه، إذ لو كان سبيكة واحدة لا حلقات بها لشقّ عليهم الأمر.
- تيسير حفظه بالتدرج من قصار السور إلى ما فوقها، فالقارئ أو الحافظ كلما أنهى سورة كان أفرح وأنشط لمباشرة التي تليها.
- الدلالة على موضوع الحديث ومحور الكلام، فإن في كل سورة موضوعا بارزا تتحدث عنه، كسورة البقرة، وسورة يوسف، وسورة مريم، وسورة النمل، وسورة الجن..

ث **تقسيم السور**: السور أربعة أقسام[1]

- الطِّوَال أو الطُّوَل: وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف و(الأنفال مع براءة) أو يونس.
- المِئُون: التي يزيد عدد آياتها عن مائة أو يقاربها.
- المَثَاني: هي التي تليها في عدد الآيات، سميت كذلك لأنها تثنى في القراءة وتكرر أكثر من الطُّوَل والمئين.
- المُفَصَّل: من أول سورة (ق) أو (الحجرات) إلى آخر القرآن. وسُمِّي كذلك لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة. وهو ثلاثة أقسام:
  - ✓ طوال المفصل: من سورة (ق) إلى (النبأ) أو من سورة (الحجرات) إلى (البروج).
  - ✓ أوساط المفصل: من سورة (النبأ) إلى (الضحى)، أو من سورة (البروج) إلى (البيِّنة).
  - ✓ قصار المفصل: من سورة(الضحى) أو (البيِّنة) إلى آخر القرآن.

ج –**عدد سور القرآن:**

عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وقيل مائة وثلاث عشرة بجعل (الأنفال) و(براءة) سورة واحدة. أولها نزولا (المدَّثِّر) وآخرها (النَّصر) ، وأطولها (البقرة) وأقصرها (الكوثر)[2].

2 –**الآية:**

أ – **الآية في اللغة**: يأتي لفظ الآية في اللغة على معان منها[3]:

1. الجماعة: تقول العرب: خرجَ القومُ بآيتهم، أي: بجماعتهم. والآية على هذا الجماعة من الكلمات والحروف.

[1] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص374–376، ومناهل العرفان:ج1/286–287، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص145–146.
[2] ينظر: الإتقان في علوم القرآن:ص183،161،422، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص146.
[3] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج1/ص266–267، ومناهل العرفان: ج1/274.

2. العلامة: يقولون : خربت دار فلان وما بقي فيها آية، أي: علامة. ولعل منها قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[البقرة: ٢٤٨]، فالآية القرآنية على هذا علامة على فضل وصدق القرآن، أو هي علامة انقطاع ما قبلها من الكلام عما بعدها.

3. المعجزة: منها قوله –تعالى–:﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ﴾[البقرة: ٢١١]. وبآيات القرآن التي منها سورُه تحقَّق الإعجاز.

4. البرهان والدليل: ومنها قوله–تعالى–:﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢]، فآيات القرآن كلُّها دليل وبرهان على ربانية مصدره وصدق من بُعِث به –صلى الله عليه وسلم–.

5. العجب: ومنه قولهم: فلان آية في العلم أو الجمال. فكأن كل آية من القرآن عجبٌ في نظمها والمعاني المودعة فيها.

6. العبرة: منها قوله تعالى:﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وما من آية في القرآن إلا وفيها عظة وعبرة لمن أراد أن يتذكر ويعتبر.

ب **الآية في الاصطلاح:**

هي قرآنٌ مركَّبٌ من جملٍ ولو تقديرا ذو مبدإٍ ومقطعٍ مندرجٌ في سورةٍ. أو هي الواحدة من المعدودات في السورة [1].

ت **عدد آي القرآن:**

الاتفاق على أن عدد آي القرآن ستة آلاف ومئتان،(6200) واختلفوا في الزائد عن ذلك، ونقل بعضهم الإجماع على الستة آلاف والاختلاف فيما زاد[2].

وأطول آية هي آية الدَّيْن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾[البقرة: ٢٨٢]، وأقصر آية قيل هي(والضحى) وقيل(والفجر) وقيل(مدهامتان)..أو بعض الأحرف المقطعة في فواتح السور عند البعض من مثل (الم)،و(طه)،و(يس)، و(حم).. [3]

و اختُلِف في أول وآخر ما نزل من القرآن، وأصحُّ الأقوال إن أوّل الآيات نزولا ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١]، وآخرها:﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١][2].

---

[1] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج1/ص266-267، والإتقان في علوم القرآن: ص431.

[2] ينظر: البرهان في علوم القرآن:ج 249/1، وتهذيب وترتيب الإتقان في علوم القرآن: ص 22. وعند ابن الجوزي في: فنون الأفنان في عيون علوم القرآن: ص241:" وقد وقع إجماع العادِّين على أن القرآن ستة آلاف ومئتا آية".ا.ه

[3] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج268/1.

3 -**الكلمة**: هي اللفظة الواحدة، وقد تكون على حرفين مثل (ما) و(له) و(لي) و(لك)، أو أكثر. وأكثر ما تكون عشرة أحرف، مثل ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ [النور: ٥٥]، و﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ [ه ود: ٢٨]، أوأحد عشر حرفا مثل: ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ [الحجر: ٢٢][3].

عدد كلمات القرآن:

قيل سبع وسبعون ألفا وتسعمائة وأربع ثلاثون كلمة (77934)، وقيل سبع وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة (77439)، وقيل سبع وسبعون ألفا وأربعمائة وسبع وثلاثون (77437)، وقيل غير ذلك.. [4]

---

[1] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص 158-159، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان،ص 65-68، والجداول الجامعة في العلوم النافعة:ص136.

[2] وقيل:﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة: ٣]، وقيل:﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقيل: آية الربا﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وقيل:آية الدين [البقرة:282]، وقيل: آية الكلالة﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾[النساء: ١٧٦]، وقيل غير ذلك. ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص 176-187، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص 69-71، والجداول الجامعة في العلوم النافعة: ص136.

[3] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج1/268. والمتامِّل في كلمتي (ليستخلفنَّهم) و(فأسقيناكموه) يجدهما مكونتين كلاًّ منهما من أحد عشر حرفا.

[4] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج1/ص249، وفنون الأفنان في عيون علوم القرآن: ابن الجوزي، ص245-246.

الدرس الخامس

مكونات النـــــص القرآني

ثانيا: القصة القرآنية

1 -**مفهوم القصة القرآنية**[1]:

أ – **في اللغة:**

القصّة أو القصص من (القَصّ)، وهو تتبُّعُ الأثر، يقال: قصصتُ أثرَهُ، أي: تتبَّعْتُهُ. والقصصُ مصدرٌ، ومنه قوله–تعالى–:﴿ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴾ [الكهف: ٦٤] أي: رجعا(موسى –عليه السلام– وفَتَاهُ) يقصّان الأثرَ الذي جاءا به. وقوله على لسان أمّ موسى– عليه السلام–:﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾[القصص: ١١] أي: تتبَّعي أثرَه حتى تنظري من يلتقطه. والقصصُ كذلك الأخبارُ المتَتَبَّعة، قال–تعالى–: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ ﴾[آل عمران: ٦٢]، وقال:﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[يوسف: ١١١]. والقصَّة: الأمرُ والخبرُ والشأنُ والحالُ.

ب **في الاصطلاح:**

قصص القرآن: إخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة.

2 -**أنواع القصص في القرآن:**

القصص القرآني ثلاثة أنواع[2]:

- **الأول**: قصصُ الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم لأقوامهم، والمعجزات التي أيَّدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوات وتطورها، وعاقبة كل من المؤمنين والكافرين.
- **الثاني**: قصصٌ يتعلَّق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوَّتهم، كقصص الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت وجالوت، وأهل الكهف، وذي القرنين..
- **الثالث**: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت زمن النبي–صلى الله عليه وسلم– كغزوة بدر، وأحد، والأحزاب، والإسراء، والهجرة..

3 -**أغراض القصص القرآني وفوائده:**

للقصص القرآني أغراض يهدف إليها وفوائد يتقصدها، يمكن إجمالها في[1]:

---

[1] ينظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص 305–306، وبحوث منهجية في علوم القرآن، موسى إبراهيم الإبراهيم، دار عمار، عمان، الأردن، ط1996/2، ص184–185

[2] ينظر:مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص306، وبحوث منهجية في علوم القرآن، ص185.

1. إثبات الوحي والرسالة: ففي إخباره- صلى الله عليه وسلم- بأمور غيبية، وأحوال أمم ماضية، وهو النبي الأمي الذي لم يعرفه قومه قارئا ولا كاتبا، وما عهدوه مخالطا لأهل كتاب، ولا رحّالة جوّالة يجمع القصص والأخبار والأساطير، ولا منجما أو كاهنا يتحدث بما تمليه عليه الشياطين، ولو ثبت عنه مِن ذلك شيء لشكَّ قومُه قبلَ غيرِهم وشكَّكُوا في دعوته! قال –تعالى-:﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].. ففي إخباره ذلك دليل على صدق نبوته وربانية مصدر القرآن الذي بعث به.

ولقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الغرض بالربط بين الوحي أو القرآن والقصص في أكثر من موضع، فقال- سبحانه-:﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٩]، وقال:﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف: ١ – ٤]، وقال:﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القصص: ٤٤ – ٤٦].

2. بيان وحدة الدِّين وأنه كلَّه من عند الله – عزّ وجلّ- من لدُن نوحٍ -عليه السلام- إلى نبيِّنا محمّدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وقد أخبر –سبحانه- أنه ما مِن رسول بُعِث في قومه إلا وجاء بالدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، ونبذ كل صور الشرك معه أو من دونه، قال –تعالى-:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وجاء قصص كثير منهم في القرآن وبيَّن أن كلمتهم الأولى لأقوامهم هي (يا قوم اعبدوا الله)، فقد أخبر عن نوح-عليه السلام- فقال:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وعن هود-عليه السلام- فقال:﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وعن صالح-عليه السلام-:﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[الأعراف: ٧٣]، وعن شعيب –عليه السلام- فقال:﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[الأعراف: ٨٥]..فدلّ على أن

[1] تنظر هذه الأغراض في: الواضح في علوم القرآن: د. مصطفى ديب البغا، محي الدين ديب مستو،دار الكلم الطيب–دار العلوم الأنسانية،دمشق، سوريا، ط1998/2، ص183-186، وبحوث منهجية في علوم القرآن: ص185-188.

دعوات الرسل كلهم متفقة في أصل الدين، وصَدَق رسولُ الله–صلى الله عليه وسلم– إذ قال: "نحنُ معاشرَ الأنبياءِ أبناءُ عَلاَّتٍ دينُنا واحدٌ"[1].

3. تثبيت قلب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وقلوب المؤمنين على دين الله وتقوية ثقتهم بنصر الله، فما من نبيٍّ جاء بالتوحيد ودعوة الحق إلا وعاداه قومه، وأعرضوا عن دعوته، وصدوا الناس عنها، وأذاقوه ومَن معه كل ألوان الإيذاء والعذاب والتنكيل، فما وهنوا ولا استكانوا، ولا صدَّهم ذلك عن دينهم، بل صبروا وثبتوا حتى جاءهم نصر الله، وحلّ الهلاك بمن عاداهم، قال –تعالى–:﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [ه ود: ١٢٠] .

4. تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم.

5. مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، كما في قوله–تعالى–:﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٣].

6. بيان نعم الله تعالى على أنبيائه وأصفيائه كما في قصص سليمان وداود وإبراهيم وأيوب ومريم وعيسى–عليهم السلام–..

7. تنبيه أبناء آدم –عليه السلام– وتحذيرهم من غواية الشيطان وعداوته الخالدة لهم من لدن أبيهم– عليه السلام–﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس: ٦٠ – ٦١].

8. العظة والعبرة، إذ القصص ضرب من ضروب الأدب، تستلذُّه الأسماع وتستطيبه النفوس وتتأمله العقول، فترسخ عبره وتتمكن عظاته، قال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[يوسف: ١١١]، وقال:﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ه ود: ١٢٠].

4 -**خصائص القصة القرآنية:**

إن من أهمِّ خصائص القصة القرآنية[2]:

[1] العلات: جمع علَّة، وهي الضَّرَّة، أي الزوجة بعد الزوجة، والمقصود من الحديث أنه وإن كانت شرائعهم مختلفة فأصل دينهم واحد، مثلما أن أبناء العلات أمهاتهم شتى وأبوهم واحد.

[2] تراجع هذه الخصائص في: الواضح في علوم القرآن:ص 186–190، والتصوير الفني في القرآن: سيد قطب، ص 182 وما بعدها. ومقال (من خصائص القصة في القرآن)، احمد الشرباصي، مجلة كنوز الفرقان: العدد الأول، السنة الأولى، نقلا عن موقع الألوكة: http//www.alukah.net، تاريخ الإضافة: 2012/09/09.

1. الصدق والواقعية، فهي قصة حقيقية وقعت لا اختلاق فيها، وليست ضربا من التمثيل أو نسجا من الخيال كحكي القصاصين وأساطير الأفاكين من الناس ! قال-تعالى-:﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال-سبحانه-:﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٢].
2. التكرار من غير سآمة أو ملال ! فهي كُلَّما كُرِّرَت جَمُلَت، وكلَّما جَمُلت حَلَت.. وفي كل مرة تتكرر تُعرَض في صورة جديدة، يطبعها التَّلوين في العبارة، والتّجديد في الأسلوب، والمناسبة لمقام المخاطبين والأهداف العامة للسورة، إيجازا وإجمالا أو إطنابا وتفصيلا.. كما في قصة موسى- عليه السلام- وقد عرضت بإسهاب في سور البقرة والأعراف وطه والقصص، بينما عرضت موجزة في سورة النازعات من قوله -تعالى-:﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [النازعات: ١٥] إلى قوله:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات: ٢٦].
3. العرض بالقدر الذي يحقق الغرض، فمن القصص المطوَّل كقصة موسى ويوسف ومريم وولادة عيسى- عليهم السلام-، ومنه المتوسط فيه كقصة نوح وهود وصالح وداود وزكريا -عليهم السلام-، ومنه المختصر كقصة أصحاب الجنة﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [القلم: ١٧ – ١٨]، وقصة نزول آدم عليه السلام إلى الأرض﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه: ١٢٣].
4. عدم ذكر القصة في الغالب بجميع مواقفها في موضع واحد أو سورة واحدة من سور القرآن، بل توزَّع على القرآن، حتى يتسنى لطالبها جمعها من مواضع شتى، فيقف بذلك على الخير الكثير والنفع العميم.
5. التصوير الفني، وهو من أخص خصائصها، وإن كان ميزة للقرآن كله ! ويتجلى البعد التصويري في القرآن الكريم في قوة العرض والإحياء كما في مشهد إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- وهما يبنيان الكعبة، ونوح- عليه السلام- في أثناء وقوع الطوفان، ومشهد عرض أصحاب الكهف..كما يتجلى هذا البعد في عرض العواطف والتعبير عن الانفعالات مثلما في تصوير مشهد صاحب الجنتين والذي يحاوره في سورة الكهف، وقصة سيدنا موسى -عليه السلام- مع الخضر في سورة الكهف أيضا، و مشهد مريم-عليها السلام- عند ميلاد عيسى- عليه السلام- .. ويتجلى ثالثا في رسم الشخصيات، والقصص القرآني كله متميز في طريقة إحضاره وعرضه للشخصيات في حلقات ومشاهد العرض، طالت القصة أم قصرت..

الدرس السادس

سياقاتُ النَّصِّ القرآنيِّ

أوَّلا: السِّياقُ السَّببيُّ (أسبابُ النُّزول)

1 -**تعريف السبب**: هو ما نزل القرآن بشأنه وقت وقوعه[1] كحادثة أو سؤال[2].

- **مثال ما نزل بخصوص حادثة:**

- ما رُوِي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: "لما نزلت﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]خرج النبي –صلى الله عليه وسلم– حتى نزل الصفا، فهتف: يا صباحاه ! فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدِّقي؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذبا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبًّا لك، إنّما جمعتَنا لهذا؟ ثم قام. فنزلت هذه السورة﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾"[3].
- ما رُوِي بخصوص الخلاف الذي نشب بين الأنصار، بين جماعة من الأوس وأخرى من الخزرج، بدسيسة من أعداء الله اليهود، حتى تنادوا: السلاح، السلاح ! فنزلت في ذلك آيات حكيمة هي في سورة آل عمران بدءًا من قوله– تعالى–:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠] إلى قوله:﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [آل عمران: ١٠٥] تنفِّرُ من الشقاق والانقسام، وترغِّب في الوحدة والمحبة بين المؤمنين[4].
- ما رَوَى أبو يعلى وابن جرير عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: " أنزِلتْ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله–صلى الله عليه وسلم– فجعل يقول: أرشدني، قالت: وعند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مِن عظماء المشركين، فجعل النبي– صلى الله عليه وسلم– يُعرِض عنه ويُقبِل على الآخر،ويقول: أترى بما أقولُ بأسًا؟ فيقول:لا.ففي هذا أنزِلت﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾"[5].

- **مثال ما نزل جوابا عن سؤال:**

---

[1] كلمة (وقت وقوعه) قيد لا بدّ منه في التعريف، ليحترز به عن الآيات التي تنزل ابتداءً من غير سبب، وهي الأكثر في القرآن.

[2] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص 189، ومناهل العرفان: الزرقاني، ج1/ص89، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص78، ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، ص132.

[3] ينظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص 77، وفيه أن الحديث من رواية البخاري ومسلم.

[4] ينظر: علوم القرآن: عبد الله محمود شحاته، دار غريب، القاهرة، د/ط–ت، ص75.

[5] تفسير القرآن العظيم: ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمر، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ط1999/2، ج320/8.

- ما رواه الحاكم وابن ماجه عن عائشة- رضي الله عنها –من أن خولة بنت ثعلبة ذهبت تشكو زوجها أوس بن الصامت، وقد ظاهر منها، إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم – فقالت: يا رسول الله: أكل شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولَدِي ظاهَرَ منِّي ! اللهم إنِّي أشكو إليك !. فما برِحتْ حتى نزل جبريلُ –عليه السلام- بهذه الآيات﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١][1].
- ما رواه البخاري عن ابن مسعود –رضي الله عنه- قال: كنتُ أمشي مع النبي- صلى الله عليه وسلم- بالمدينة، وهو يتوكَّأُ على عسيب، فمرَّ بنفرٍ من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتمُوه. فقالوا: حدِّثنا عن الرُّوح. فقام ساعة ورفع رأسه، فعرفتُ أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحيُ، ثم قال:﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥][2].
- ما أخرجه الحاكم والترمذي عن أم سلمة –رضي الله عنها- أنها قالت: يا رسول الله! لا أسمع اللهَ ذكَرَ النساءَ في الهجرة بشيء؟ فأنزل اللهُ -تعالى-: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾[آل عمران: ١٩٥][3].

2 -فوائد معرفة أسباب النزول[4]:

- أعظم فائدة أن تتحقق معرفة حكمة الله -تعالى- على التعيين فيما شرَعَهُ بالتنزيل، فيزداد المؤمن إيمانا لما شاهده وعرف سبب نزوله، وأمّا الكافر فإن كان مُنصِفا بهَرَهُ صدقُ هذه الرسالة الإلهية، لأن ما نزل بسبب من الأسباب إنما يدلُّ على عظمة المُنزِل وصدق المنزَل عليه.
- الاستعانة على فهم الآية وتفسيرها ودفع الإشكال والتوهم عنها، وقد نقل غير واحد عن الواحدي قوله: "لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها "، وعن ابن دقيق العيد: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن"، وعن ابن تيمية:"معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن معرفة السبب تورث العلم بالمسبَّب"[5]، ومن ذلك قوله –تعالى-: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ

[1] ينظر: الجداول الجامعة في العلوم النافعة: ص136، ومباحث في علوم القرآن:مناع القطان، ص77-78.
[2] الواضح في علوم القرآن: ص59.
[3] نفسه: ص 59-60.
[4] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص 190-195،ومناهل العرفان: ج 1/ ص91-95، ومورد الظمآن في معرفة علوم القرآن: صابر حسن محمد،الدار السلفية، بومباي، الهند، ط 1984/1، ص29-33، ومباحث في علوم القرآن : صبحي الصالح، ص 129-132،وبحوث منهجية في علوم القرآن:موسى إبراهيم الإبراهيم،، ص30-32، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص79-82.
[5] ينظر مثلا: الاتقان في علوم القرآن: ص 190-191، ومورد الضمآن في علوم القرآن: ص 30.

﴾ [البقرة: ١١٥]، فإن ظاهرها التوجه إلى أي جهة في الصلاة ، وأنه ليس شرطا إلى القبلة، ولكن إذا عُلِم أن هذه الآية نازلة في نافلة السفر خاصة كما هو مذهب ابن عمر –رضي الله عنهما–، أو فيمن صلّى باجتهاده ثم تبيَّن خطؤه، كما في حديث جابر بن عبد الله، إذ قال: بعث رسول الله –صلى الله– صلى الله عليه وسلم– سريّةً كنت فيها، فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة ، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة، هي ها هنا قِبل الشمال، فصلوا وخطوا خطوطا، وقال بعضنا: القبلة ها هنا قِبل الجنوب، فصلوا وخطوا خطوطا. فلما أصبحوا وطلعت الشمس، أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة. فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي –صلى الله عليه وسلم– عن ذلك فسكت. فأنزل الله –تعالى–:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ..فإذا عُلِم ذلك تبيَّن أن مراد الآية التخفيف على خصوص المسافر في صلاة النافلة، أو على المجتهد في القبلة إذا صلى وتبين خطؤه.

- بيان الحكمة التي دعت إلى تشريع حكم من الأحكام، وإدراك مراعاة الشرع لمصالح العامة في علاج الحوادث رحمة بالأمة، كما في تشريع حدّ القذف في سورة النور ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ، فقد كان في رماة السيدة عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها–[1] وفي كل قاذف زورا وبهتانا بعد ذلك، حتى لا يترك العنان لكل قلب مريض أو لسان أثيم أن يتطاول على أعراض الناس فيصيب بادعائه وإفكه كل شريف وشريفة ومُحصَن ومُحصَنة، ولأن المجتمع إذا ذاع فيه الحديث عن الأعراض والاتهامات الباطلة، دون ردع أو زجر، كان مُمَهَّدًا مُهَيَّأً لأن ترتكب فيه الفاحشة !.
- تخصيص الحكم الذي نزل بصيغة العموم، كما في قوله –تعالى–: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، فقد روي في الصحيحين أن مروان بن الحكم قال لبوَّابِه: اذهب يا رافعُ إلى ابن عباس فقل له: لَئِن كان كلُّ امرِئٍ منّا فرح بما أتى، وأحَبَّ أن يُحمَد بما لم يفعل يعذَّب، لنُعذَّبَنَّ أجمعين[2]؟ فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما نزلت في أهل الكتاب، ثم تلا: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، سألهم النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– شيئا فكتموه إياه، وأخذوا بغيره، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه ". فزال بهذا التوضيح من ابن عباس الإشكال واللبس عن مروان وعن غيره، وتبيّن المراد .
- تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي، في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها، لأن في ربط الحوادث بالأسباب والأشخاص والأزمنة والأمكنة تمكينا وترسيخا للمعاني،كما هو مقرر في علم النفس.

[1] نزل في القاذفين عشر آيات من الآية 11 إلى الآية 20 من السورة نفسها.

[2] وفي الرواية الأخرى (لنعذبنَّ أجمعون).

3 -**العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**[1]:

اشتهرت هذه القاعدة عند جمهور العلماء، والمراد منها أن الآيات التي نزلت لأسباب معينة ووقائع خاصة ليست مقتصرة على سبب نزولها، بل العبرة بعموم لفظها، فيشمل كل من يتناوله الخطاب القرآني، فإذا كان نزول الآيات بحدِّ القذف في أولئك الذين قذفوا السيدة عائشة –رضي الله عنها– واتهموها بصفوان بن أمية – رضي الله عنه– فإنه يشمل كل من اتهم غيره بالزنا وليس له أربعة شهداء في ذلك العصر أو في العصور التي تليه، فيطبق عليه حد القذف متى تحققت الشروط وانتفت الموانع.

وكذلك حكم الظهار فإنه ليس خاصا بخولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت، بل هو عام في كل مسلم ظاهر من زوجته في زمان أو مكان.

وقوله –تعالى– :﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ليس خاصا بجابر بن عبد الله ومن كان معه من الصحابة –رضوان الله عنهم جميعا– في تلك السرية، بل يشمل كل من كانت حاله كحالهم، فصلى وهو يجهل اتجاه القبلة ثم تبين خطؤه بعد ذلك.

4 -**أشهر ما كتب في أسباب النزول**:

من أشهر ما كتب القدامى في هذا الباب من أبواب علوم القرآن[2]:

- أسباب النزول: لأبي الحسن علي بن المديني (–234هـ) شيخ الإمام البخاري، وهو أقدم مؤلف في الأسباب كما قال السيوطي في الإتقان.
- أسباب نزول القرآن: للواحدي أبي الحسين علي بن أحمد النيسابوري (– 468هـ). قال عنه السيوطي: "من أشهرها كتاب الواحدي على ما فيه من إعواز".
- العجاب في بيان الأسباب: لابن حجر العسقلاني أبي الفضل شهاب الدين أحمد (–852هـ).
- لباب العقول في أسباب النزول: لجلال الدين السيوطي (–911هـ).

و أما عند المحدثين فيُذكَر:

- أسباب النزول القرآني: غازي عناية
- تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول: خالد عبد الرحمان العك.

[1] راجع: الإتقان في علوم القرآن: ص 196–200، ومناهل العرفان: ج1/ص104–109، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، 82–85،

[2] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص189.

- المحرّر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة –دراسة الأسباب رواية ودراية–: د. خالد بن سليمان المزيني، وهو عبارة عن رسالة دكتوراه ، حصل صاحبها بها على جائزة أفضل رسالة علمية من الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه عام 1427هـ.

ثانيا : السياق المكاني

– المكي والمدني–

1 -معرفة المكي والمدني:

العلم بالمكي والمدني علم جليل القدر، عميم الفائدة، خليق بالعناية والاهتمام، جدير بأن تُبحَث في ظلِّه مراحلُ الدعوة الإسلامية، من بعثته –صلى الله عليه وسلم–إلى وفاته ، وكيفية تدرجها ومسايرتها للأحداث والظروف، في مكة والمدينة، باختلاف المخاطبين: مسلمين، وكفارا مشركين أو أهل كتاب، ومنافقين.

ولهذه الأهمية تركزت عناية علماء القرآن في تحديد المكي والمدني، وضبط خصائص وميزات كل منهما[1]، وكانت عناية فائقة، فتتبعوا القرآن آية آية وسورة سورة بحسب الترتيب في النزول، وبذلوا في ذلك جهدا كبيرا مراعين الزمان والمكان والخطاب، ما يكشف عن صورة علمية دقيقة في البحث..ولأن هذا العلم قائم في أصله على الرواية قبل الدراية، فإنهم اختلفوا ولم يجتمعوا على رأي واحد بخصوص تحديد القرآن المكي والقرآن المدني، سوره وآياته[2]، وهو اختلاف طبيعي، إذ لا سبيل إلى التحقيق في هذا الفن إلا من خلال منهجين [3]: منهج سماعي يعتمد الرواية، وهو المقدَّم، ومنهج قياسي يعتمد الاجتهاد، في حال عدم أو تعذّر الأول، وقد نقل السيوطي في الإتقان عن القاضي أبي بكر الباقلاني في (الانتصار) قوله: "إنما يُرجَع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن النبي –صلى الله عليه وسلم– في ذلك قول، لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل اللهُ علمَ ذلك من فرائض الأمة، وإن وجَب في بعضه على أهل العلم تاريخ الناسخ والمنسوخ، فقد يُعرَف ذلك بغير نص الرسول"[4].

---

[1] ينظر تجليات هذه العناية في: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص53–54، ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح،ص 167–175.

[2] أقرب ما قيل في تعداد السور المكية والمدنية إلى الصحة أن عدد السور المكية اثنتان وثمانون سورة (82)، وعدد السور المدنية عشرون (20)، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة. ينظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص 55 وقد أثبت السور المدنية، والسور المختلف فيها، والجداول الجامعة في العلوم النافعة، ص 134، وقال بعضهم بالاتفاق على ذلك. ينظر: علوم القرآن: عبد الله محمود شحاته، ص 46–47. وعقد السيوطي فصلا بعد حديثه عن السور المكية والسور المدنية وما فيها من نقولات، عنون له بـــ(فصل في تحرير السور المختلف فيها)، ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص60.

[3] يبدو أن صاحب التقسيم إلى سماعي وقياسي هو الجعبري، نقل عنه ذلك الزركشي في البرهان في علوم القرآن: ج 1 /ص189، والسيوطي في:الإتقان في علوم القرآن: ص 108.

[4] الإتقان في علوم القرآن: ص 47، وفي النص تصرف، ونقله الزركشي مطولا في فصل مستقل في: البرهان في علوم القرآن: ج 191/1. ولينظر النص في: الانتصار للقرآن: الباقلاني القاضي أبو بكر بن الطيب، تحقيق:د.محمد عصام القضاة، دار ابن حزم، بيروت،ط 2001/1، المجلد الأول، ج247/1

- المنهج السماعي: يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة، لأنهم عاصروا الوحي وشاهدوا التنزيل، أو عن التابعين الذين تلقوا علمهم عن الصحابة، وسمعوا منهم كيفية وزمن نزوله والملابسات التي نزل فيها[1].
- المنهج القياسي: يستند إلى خصائص كل من المكي والمدني، بعد الاجتهاد في تحديدها، ليحكم وفق تلك الخصائص على السورة أو الآية بالمكية أو المدنية، فلذلك تجدهم يقولون مثلا: كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية هي مكية، وكل سورة فيها فريضة أو حدٌّ هي مدنية[2].

2 -**الفرق بين المكي والمدني:**

للعلماء في التفريق بين القرآن المكي والقرآن المدني ثلاثة اعتبارات[3]:

أ -**باعتبار المخاطَب**: فالمكي ما خوطب به أهل مكة، والمدني ما خوطب به أهل المدينة. وقالوا ما كان فيه (يا أيها الناس) فخطاب لأهل مكة، وما كان فيه (يا أيها الذين آمنوا) فخطاب لأهل المدينة. غير أن هذا مما لا ينضبط دائما إذ نجد في سورتي البقرة والناس (يا أيها الناس) وهما مدنيتان[4].

ب -**باعتبار مكان النزول**: المكي ما نزل بمكة وما جاورها مثل منىً وعرفات والحديبية، والمدني ما نزل بالمدينة وما جاورها مثل أحد وقباء وسلع. ويلزم من هذا أن ما نزل بغير مكة والمدينة ليس مكيا ولا مدنيا، كالذي نزل بالأسفار، وبتبوك، وفي الإسراء! كما يلزم أن ما نزل بمكة بعد الهجرة هو مكي !

ت -**باعتبار زمن النزول**: المكي ما نزل قبل هجرته –صلى الله عليه وسلم– إلى المدينة وإن بغير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن بغير المدينة، وهو أشهر الأقوال. ولذلك فإن قوله–تعالى–: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾

---

[1] ذكر صبحي الصالح أن علم المكي والمدني هو أحوج علوم القرآن إلى تمحيص الروايات، وتحقيق النصوص، والتحاكم إلى التاريخ الصحيح، وهو أحوج إلى ذلك حتى من علم أسباب النزول. ينظر: مباحث في علوم القرآن: ص167.

[2] ينظر: الجداول الجامعة في العلوم النافعة: ص134.

[3] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج 1/ص187–191، والإتقان في علوم القرآن: ص 45، ومناهل العرفان: ج 1/ ص159–161. وقد لاحظ صبحي الصالح أن هذه الاعتبارات في بحث المكي والمدني وتصنيفه قد راعت الأشخاص المخاطبين ومكان النزول وزمانه، وأنه لم يكن منها الموضوع، موضوع النص أو السورة القرآنية، وأعطى لذلك جملة من الأمثلة. ينظر: مباحث في علوم القرآن: ص 167–169. وربما كان الجواب عن هذا التساؤل في تعليقه على الأمثلة التي أوردها، فكان يقول: لذلك أدرجها العلماء في باب (ما نزل بالمدينة وحكمه مكي)، وقوله: بل أدرجوه في باب (ما نزل بمكة وحكمه مدني)،فما لم يخضع إذن لواحد من الاعتبارات الثلاثة وخضع للموضوع درس في مسائل مستقلة كالتي ذكرها. ثم إن المعايير من ميزات وضوابط التي اجتهد العلماء في الحكم من خلالها على السورة أو الآيات بالمكية أو المدنية هي في أغلبها موضوعية.

[4] قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:٢١]،وقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ﴾[البقرة: ١٦٨]، وقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾[النساء: ١].

[النساء: ٥٨]، وإن نزل بمكة عام الفتح فهو مدني، وكذلك قوله-سبحانه-:﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة: ٣] وقد نزل في حجة الوداع.

3 -**مميزات وضوابط المكي والمدني:**

سبق ذكر أن الأصل في تحديد القرآن المكي والقرآن المدني هو الرواية الصحيحة عن الصحابة والتابعين، وهو لا يمنع من الاجتهاد في الحكم على سورة أو آية بالمكية أو المدنية عند عدم الرواية، ولذلك كان الاستقراء لما ثبتت مكيته وما ثبتت مدنيته، وباستصحاب مراحل الدعوة النبوية المختلفة، وما ميَّز كل مرحلة، خلص العلماء إلى أهم الضوابط والمميزات التي ينضبط ويتميز بها كل من القرآن المكي والمدني، لتكون هي المعايير في المنهج القياسي عند عدم السماع. ومن أهم هذه المعايير[1]:

أ -مميزات القرآن المكي:

- الدعوة إلى توحيد الله –تعالى- وعبادته، وذكر اليوم الآخر والقيامة، والجنة والنار، ومجادلة المشركين بالبراهين والحجج العقلية والآيات الكونية..
- فضح أعمال المشركين وإبطالها من سفك للدماء وأكل لأموال اليتامى و قتل للأولاد ووأد للبنات..
- الإكثار من قصص الأنبياء وأخبار السابقين تسلية عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-.
- قوة الألفاظ مع قصر الفواصل وإيجاز العبارة.

ب ضوابط القرآن المكي:

- كل سورة فيها سجدة.
- كل سورة فيها لفظ (كلَّا)[2].
- كل سورة فيها (يا أيها الناس) وليس فيها (يا أيها الذين آمنوا)، إلا الحج فهي مكية وقد ذكر فيها (يا أيها الذين آمنوا) في آخرها في قوله- سبحانه-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج: ٧٧].
- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة أو قصة آدم –عليه السلام- مع إبليس، غير سورة البقرة.
- كل سورة تفتتح بحروف التهجي مثل: الر، الر، حم،..ما عدا البقرة وآل عمران، واختلف في سورة الرعد.

[1] ينظر:الإتقان في علوم القرآن: ص106-109، ومناهل العرفان: ج1/162-163، وعلوم القرآن: عبد الله محمود شحاته، ص 52-58، وفنون الأفنان في عيون علوم القرآن: ص 338-340 (الهامش) ففيه تقسيم وتفصيل جيدان من المحقق حسن ضياء الدين عتر. كما فصل تفصيلا جيدا أيضا صبحي الصالح في: مباحث في علوم القرآن: ص181-184.

[2] ذكرت (كلَّا) في النصف الثاني من القرآن، في خمسة عشر موضعا، ثلاثا وثلاثين مرة.

ت -مميزات القرآن المدني:

- بيان الأحكام المتعلقة بالعبادات والمعاملات والحدود والجهاد ونظام الأسرة وقواعد الحكم..
- مخاطبة أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتب الله.
- فضح المنافقين وبيان خطرهم على الإسلام.
- طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر قواعد التشريع ومقاصده.

ث ضوابط القرآن المدني:

- كل سورة فيها فريضة أو حدٌّ.
- كل سورة فيها ذكر للمنافقين سوى (العنكبوت) فإنها مكية[1].
- كل سورة فيها مجادلة لأهل الكتاب.
- كل سورة تبتدئ بـ(يا أيها الذين آمنوا).

4 -فوائد العلم بالمكي والمدني[2]:

- تمييز الناسخ من المنسوخ: وذلك فيما لو ورد في موضوع واحد آيتان أو آيات، وخالف بعضها بعضا في الحكم، وكان بعضها مكيا وبعضها مدنيا، فإنه يحكم عند التعارض وعدم إمكان الجمع بنسخ المدنيِّ المكيَّ، لأن المدني متأخر عن المكي.
- معرفة تاريخ التشريع والتدرج فيه، ما يحكم بسمو المنهج الإسلامي في تربية الأفراد والمجتمعات، ويوقف على الحكمة الربانية في ذلك التدرج.
- الاستعانة به في تفسير القرآن وفهم معانيه، إذ إن العلم بمواقع النزول يساعد لا محالة على فهم الآية وتفسيرها تفسيرا صحيحا، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.
- تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله، ولا شك أن نزول القرآن كان بما يتوافق وكل مرحلة، فينزل من الأحكام والتوجيهات بقدر حاجة المخاطبين، وقد تلونت أساليب الخطاب في

---

[1] ذكر المنافقون فيها في الآيتين ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٠ – ١١] كما نجد فيها ذكرا لأهل الكتاب في الآيتين﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[العنكبوت: ٤٦ – ٤٧].

[2] ينظر: مناهل العرفان: ج1/ص161، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص 59-60، والجداول الجامعة في العلوم النافعة: ص134.

ذلك، بما يحقق المصلحة ، ويخدم تلك الحاجة.. والمخاطبون بالقرآن أصناف: مؤمنون و مشركون ومنافقون وأهل الكتاب.وهذا التنوع في الخطاب وأسلوبه ومتلقيه وبيئته يفيد لاشك كل سالك طريق الدعوة إلى الله.

- الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية، لأن نزول الوحي على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ساير تاريخ الدعوة بعهديها المكي والمدني، منذ بدأ الوحيُ إلى آخر آية نزلت، والقرآن هو المرجع الأصيل للسيرة النبوية الذي لا يدع مجالا للشك فيما روي عن أهل السير موافقا له، وإليه التحاكم عند اختلاف الروايات.
- الثقة بهذا القرآن وبسلامته من التحريف والتبديل، ويتجلى ذلك في العناية التي أولاها علماء الأمة منذ عهد الصحابة –رضوان الله عنهم – بكتاب الله، وتتبعهم الوحي ونزوله، فأحصوا المكي والمدني، وما نزل بغير مكة والمدينة، وما نزل صيفا وما نزل شتاء، وما نزل نهارا وما نزل ليلا، وما نزل سفرا وما نزل حضرا، وما نزل بالأرض وما نزل بالسماء.. ومن كان هذا حرصه وعنايته لا محالة كانت حراسته لهذا الكتاب أشد !

الدرس السابع

سياقات النص القرآني

تالثا: السياق التراتبي[1]– الناسخ والمنسوخ–

قال السيوطي في أول حديثه عن هذا الباب في كتابه (الإتقان في علوم القرآن): " قال الأئمة:لا يجوز لأحد أن يفسِّر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد قال عليٌّ لقاصّ: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكتَ وأهلكتَ"[2].

- **تعريف النسخ[3]:**

لغة: الإزالة، يقال: نسختِ الشمسُ الظلَّ، إذا أزالتْهُ. ومنه الآية ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الحج: ٥٢].

كما يطلق ويراد به **نقل الشيء من موضع إلى آخر**، فيقال: نسختُ الكتابَ، إذا نقلتُ ما فيه حاكياً لفظَه وخطَّه، ومنه قوله–تعالى–:﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩].

ومن معاني النسخ أيضا التحويل والتبديل، كالقول بتناسخ المواريث، أي بتحويلها من شخص إلى آخر، ومنه قوله–تعالى–:﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[النحل: ١٠١].

اصطلاحا: رفعُ الحكمِ الشرعيِّ بخطابٍ شرعيٍّ متراخٍ عنه.

وعليه فالناسخ هو الله –تعالى– إذا أسند فعل النسخ إليه–سبحانه– [4] كما في قوله: ﴿ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ ﴾ [البقرة: ١٠٦]، أو الآيةُ الحاملة للحكم الجديد، فيقال: هذه الآية ناسخة لآية كذا.. أو الحكمُ نفسه، فيقال: هذا الحكم ناسخ للحكم السابق.

---

[1] بُرْمِج في(السياق التراتبي) وقبل الحديثِ عن النسخ الحديثُ عن أول وآخر ما نزل، وغاية ما جمع في هذا الباب من أبواب علوم القرآن نقلٌ لأقوالٍ واختلافات حول الأول والآخر نزولا من الآيات والسور، وقد أشرنا إلى هذا في الدرس الرابع عند الحديث عن الكلمة والآية والسورة.

[2] الإتقان في علوم القرآن: ص 1435.

[3] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج 2/ 29–30، والإتقان في علوم القرآن: ص 1435، ومناهل العرفان: ج 2/137–138، والواضح في علوم القرآن: د.مصطفى البغا، محي الدين مستو، ص140–141، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص232.

[4] إذا كان النسخ بالسنة كان الناسخ هو الرسول–صلى الله عليه وسلم–، مع العلم أن النسخ بالسنة مما اختلف فيه. ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج2/ 30–31، ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، ص261.

المثال1: آيةُ المواريثِ ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ [النساء: ١١] نسخَتْ- على رأي جمهور العلماء- حُكمَ الوصية للوالدين والأقربين في قوله-سبحانه-:﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقد كانت الوصية واجبة على من حضرته الوفاة، وله من يوصي له من الوالدين والأقربين[1].

المثال2: قوله –تعالى-:﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، منسوخ بقوله- سبحانه-:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾ [البقرة: ٢٨٦][2].

- **شروط النسخ[3]**:

حتى يتحقق النسخ ويُصار إليه لا بدّ من توفر الشروط الآتية:

- أن يكون الحكم المنسوخ شرعيا.
- أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم دليلا شرعيا متراخيا عن الخطاب المنسوخ حكمُه.
- أن لا يكون الخطابُ المرفوعُ حكمُه مقيَّدًا بوقت معيَّن، كما في قوله –تعالى-:﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

- **ما يقع فيه النسخ[4]**:

لا يكون النسخ إلا في الأمر والنهي،والخبر المتضمن معنى الأمر أو النهي،ولا يقع في ما ليس طلبا، من مثل ما تعلّق:

- بالعقيدة كأسماء الله –تعالى- وصفاته، واليوم الآخر، والوعد والوعيد..
- بالأخلاق والآداب التي حثّ عليها الإسلام، كالصدق والآمانة والوفاء بالعهد، والتواضع..
- بأصول العبادات والمعاملات لاتفاق الشرائع عليها، قال –تعالى-:﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [الشورى: ١٣].

- **طرق معرفة الناسخ والمنسوخ[1]**:

---

[1] ينظر: الواضح في علوم القرآن: ص144. وقيل: عن الناسخ هو حديث: إن الله أعطى كل ذي حقّ حقّه فلا وصية لِوارثٍ الذي رواه ابو داود والترمذي ، عند مَن يجيز نسخ القرآن بالسنة. ينظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص243.

[2] ينظر : مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص244.

[3] ينظر: مناهل العرفان: ج2/ 141 ، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص232، وعلوم القرآن: عبد الله شحاته، ص364،

[4] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج33/2، والإتقان في علوم القرآن: ص1437، وعلوم القرآن: عبد الله محمود شحاته، ص364.

1 -النقل الصريح الصحيح عن النبي –صلى الله عليه وسلم- أو عن الصحابة –رضي الله عنهم-، مثل قوله- صلى الله عليه وسلم-: "كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها" رواه مسلم[2]. ومثل قول أنس- رضي الله عنه- في قصة أصحاب بئر معونة: "ونزل فيهم قرآنٌ قرأناه حتى رُفِع"[3].

2 -إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وذاك منسوخ.

3 -معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ.

- **حُكم النسخ[4]:**

جمهور العلماء[5] على أن النسخ جائز عقلا وواقع شرعا، واستدلوا :

1 -بأنّ أفعال الله –تعالى- لا تعلَّلُ بالأغراض، فله أن يأمر بالشيء في وقت وينسخه بالنهي في وقت آخر، لعلمه- سبحانه- بمصالح العباد، وما ينفعهم في أحوالهم المختلفة..

2 -بالنصوص الدالة على جوازه، ومنها قوله- تعالى-:﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [النحل: ١٠١]، وقوله:﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٦].

- **أنواع النسخ[6]:**

1 -**نسخ الحكم والتلاوة معا:** ومثاله ما روي عن السيدة عائشة- رضي الله عنها- قالت: " كان فيما أُنزِل عشرُ رضعات يُحرِّمنَ ثم نُسِخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وهنّ مما يقرأ من القرآن" رواه مسلم[1].

---

[1] ينظر: مناهل العرفان: ج2/163-165، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص233-234، والجداول الجامعة في العلوم النافعة: ص142.

[2] وهذا نسخ في السنة، صرّح فيه النبي-صلى الله عليه وسلم- بالحكم السابق (المنسوخ) وهو النهي عن زيارة القبور، وبالحكم الجديد(الناسخ) وهو الإذن بها، كل ذلك في حديث واحد.

[3] والمرفوع الذي نُسِخَت تلاوتُه هو: " أن بلِّغُوا عنّا قومَنا أنّا لَقينَا ربَّنا فرضيَ عنَّا وأرضانا". ينظر: بحوث منهجية في علوم القرآن: موسى إبراهيم الإبراهيم: ص152.

[4] ينظر:مناهل العرفان: ج2/ص147-151،ومباحث في علوم القرآن:صبحي الصالح،ص 262،ومباحث في علوم القرآن:مناع القطان، ص234-236

[5] خالف أبو مسلم الأصفهاني (- 322هـ) فأجازه عقلا ومنعه شرعا. واليهود تمنعه لاعتقادهم بأنه يؤدي إلى القول بالبداء على الله، أي: بدا لله الأمر بتغيير الحكم بعد أن لم يكن يعلمه ! وحاشاه سبحانه، ولا يعدو الأمر أن يكون بيانا لمدة الحكم، كالإحياء بعد الإماتة وعكسه، والمرض بعد الصحة وعكسه، والفقر بعد الغنى، وذلك لا يكون بداءً. وأما الروافض فتوسعوا في إثباته وغالوا فيه، وقالوا بجواز البداء على الله، واستدلوا لذلك بأقوال نسبوها إلى الإمام علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- زورا وبهتانا، فهم على طرفي نقيض مع اليهود. ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص1436، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان: ص235.

[6] البرهان في علوم القرآن: ج2/ 35-40، ومورد الضمآن في علوم القرآن: ص 79-81، ومباحث في علوم القرآن: 238-240.

2 -**نسخ الحكم وبقاء التلاوة:** ومنه نسخ آية العِدَّة بالحول وبقاء تلاوتها، وهي قوله- سبحانه-: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، فكان الحكم أن تعتدَّ المرأةُ المتوفى عنها زوجها سنة كاملة [2]، قبل أن ينسخ بأربعة أشهر وعشر في قوله- عزّ وجلّ-:﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

3 -**نسخ التلاوة مع بقاء الحكم:** ومنه آية الرجم "الشيخُ والشيخةُ إذا زنيا فارجموهما البتَّةَ نكالًا من اللهِ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ" متفق عليه، فهي غير موجودة في المصحف، إلا أن حكمها باقٍ[3].

- **الحكمة من النسخ[4]:**

- مراعاة مصالح العباد، وتسجيل حكمة الله –تعالى- في سياسة العباد، فيُعلَم أن الإسلام هو الدين الحق، وان نبوة محمد-صلى الله عليه وسلم-حق.
- تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وأحوال الناس.
- ابتلاء المكلف واختباره بالامتثال أو عدمه، سواء كان النسخ إلى أخف أو إلى مساوٍ أو أشق، فيظهر المؤمن فيفوز، ويظهر المنافق فيهلك، ويميز الله الخبيث من الطيب .
- حصول الأجر والثواب في تلاوة ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته، والإفادة منه في حِكَمِه وبلاغته.
- إرادة الخير للأمة والتيسير عليها، فإن كان إلى أشق ففيه زيادة ثواب، وإن كان إلى أخف ففيه تسهيل ويسر[1].

---

[1] ظاهر قولها: "فتوفي رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وهن مما يقرأ من القرآن" أنه بقيت تلاوتهن بعد وفاته- صلى الله عليه وسلم-، ما يُفْهِم بقاءَها في المصحف، وهي غير ثابتة في المصحف العثماني، ما يعني أنها أرادت أن التلاوة قد نُسِخت و لم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم، فتوفي-عليه السلام- وبعض الناس يقرؤها. أو ان المراد بـِ(توفي) قارب الوفاة –صلى الله عليه وسلم-. ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج2/ 39، والواضح في علوم القرآن: ص145.

[2] وأن تبقى في سكنى الزوجية ولها النفقة من مال الزوج، ولا ميراث لها، فإن أبت البقاء وخرجت سقطت عنها النفقة. ينظر: تفسير التحرير والتنوير:ابن عاشور محمد الطاهر، الدار التونسية، تونس، د.ط/1984، ج2/469-470، والبرهان في علوم القرآن: ج2/ 37.

[3] وقد قال عمر –رضي الله عنه- في الآية المذكورة: " لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي" رواه البخاري. ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج2/ 35، وبحوث منهجية في علوم القرآن: موسى الإبراهيم، ص152. وجعلوا منه القرآن الذي نزل في شهداء بئر معونة، الوارد في حديث أنس-رضي الله عنه- السابق.

[4] يراجع في ذلك:مناهل العرفان:ج 2/152-153، وبحوث منهجية في علوم القرآن:ص 148-149،ومباحث في علوم القرآن:مناع القطان، ص240

الدرس الثامن

سياقات النص القرآني

رابعا: السياق التداولي–القراءات القرآنية–

1 –القراءات القرآنية:

القراءة **لغة**: التلاوة

اصطلاحا: القراءة " مذهب من مذاهب النطق في القرآن، يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهبا يخالف به غيره"[2].

أمّا **علم القراءات القرآنية** فهو"علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعَزْوِ النَّاقِلِه "[3]، ليكون موضوعه كلمات القرآن من حيث أحول النطق بها وكيفية أدائها. ولا يسمى المقرئ مقرئًا إلا إذا عَلِم بالقراءة أداءً ورواها مشافهة[4]. والغاية منه: معرفة ما يقرأ به كلٌّ من أئمة القراء.

2 –**أنواع القراءات**: القراءات من حيث القبولُ والرَّدُّ نوعان: قراءة مقبولة وقراءة مردودة[1].

---

[1] مثال النسخ إلى بدل أخفّ قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾[البقرة: ١٨٧] ، ففيه إباحة الأكل والشرب والوطء من بعد الإفطار بعد الغروب إلى طلوع الفجر، وقد نسخ هذا الحكمُ الحكمَ الثابتَ في قوله –تعالى–:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٣] فكان إذا صلّى أحدهم العتمة (العشاء) أو نام حرُمَ عليه الطعام والشراب والوطء إلى الليلة التالية.

ومثال النسخ إلى بدل أشقّ، حكم الزنا، فقد كان حكم من ثبت عليها الزنا الإمساك في البيوت حتى الموت، قال– تعالى–: ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾[النساء: ١٥]. ونسخ هذا الحكم بآية الرجم السابقة في حق المحصن المتزوج، وآية الزنا في حق البكر وهي قوله–تعالى–:﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢]. =

= وقد يكون النسخ إلى بدل مماثل،كنسخ التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس بالتوجة إلى الكعبة الثابت بقوله –تعالى–: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٤٤]. ينظر هذه الأحوال الثلاثة في: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص240–241.

[2] ينظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص170.

[3] التعريف لابن الجزري. ينظر: مناهل العرفان:ج336/1، وعلم القراءات نشأته وأطواره وآثاره في العلوم الشرعية: نبيل بن محمد آل إسماعيل ، مكتبة التوبة، الرياض، السعودية، ط2000/1، ص27.

[4] ينظر: الزرقاني: مناهل العرفان، ج336/1.

أ –القراءة المقبولة:

- **تعريفها:** هي كل قراءة صحَّ سندُها، ووافقت رسم المصحف العثماني ولو احتمالا، ووافقت أحد أوجه العربية.
- **ضوابط القراءة المقبولة:**

1 -صحة السَّند إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم-.

2 -موافقة رسم أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، مثل قوله –تعالى-: (مَلِكِ يوم الدِّينِ)، فإن القراءة بغير الألف (مَلِكِ) موافقة لخط المصحف صراحة، والقراءة بالألف (مَالِكِ) موافقة له احتمالا. ومثال الموافق صراحة أيضا (يَعلَمُون) بالياء، وبالتاء(تَعلَمُون)، و(يَغْفِر لكم) بالياء، وبالنون (نَغْفِر لكم)..

3 -موافقة أحد أوجه العربية، سواء كان هذا الوجه فصيحا أم أفصح، مجمعًا عليه أم مختلفًا فيه. ومثاله قراءة أبي عمرو (**بَارِئْكُم**) بإسكان الهمز، من قوله-تعالى-:﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ ﴾ [البقرة: ٥٤] مخالفا جمهور القراء الذين قرؤوا بالكسر (**بارِئِكُم**)، والإسكان وجه أقلّ شهرة من الكسر، وكلاهما صحيح مقبول. ومثلها قراءة (**يأْمُرْكُم**) بإسكان الرّاء بدل ضمِّها كما هي قراءة الجمهور من مثل قوله-تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ﴾[البقرة: ٦٧].

ومن ذلك قراءة حمزة (**الأرحامِ**) بكسر الميم على الجرِّ عطفا على الضمير (الهاء) من قوله –تعالى-:﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ ﴾ [النساء: ١]، وجمهور القراء يقرؤون بفتحها على النصب.

- **أنواع القراءات المقبولة:** يندرج تحت هذا القسم:

1 -القراءات المتواترة.

2 -القراءات المشهورة.

3 -القراءات الأحادية الموافقة للعربية والتي صحّ سندها، غير أنها خالفت المصحف.

- **حكم هذه الأنواع:**

1 -القراءات المتواترة والمشهورة قرآن باتفاق، يُقرَأُ بها في الصلاة ويُتَعَبَّد بها، ويتمثّل فيها الإعجاز والتحدي، ويكفر جاحدها.

2 –القراءات الأحادية بشرطها المذكور مقبولة، ولكن لا يقرأ بها في الصلاة ولا يتعبّد بها، ولا يكفر جاحدها.

ب القراءة المردودة:

- **تعريفها:** هي كل قراءة اختلَّ فيها شرطٌ من شروط القراءة المقبولة.

[1] ينظر النوعان وما تحتهما من ضوابط وأحكام وأقسام في: نبيل إسماعيل: علم القراءات، ص35-41.

1 -مثال عدم صحة السند: قراءة أنس بن مالك –رضي الله عنه- (**مَلَكَ يومَ** الدِّينِ).

2 -مثال مخالفة رسم المصحف العثماني: قراءة ابن مسعود –رضي الله عنه-(إِن كَانَتْ إِلَّا **زَقْيَةً** واحِدَةً)، والقراءة الصحيحة المتواترة ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ [يس: ٥٣].

3 -مثال مخالفة العربية: قراءة ابن عامرٍ (وإنْ **أَدْرِيَ**) بفتح الياء، مخالفا ما عليه القراء(وإن أدرِي) من قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

- **حكم القراءة المردودة:**

القراءة المردودة لا تعدُّ قرآنا، فلا يُقرَأُ بها في الصلاة ولا يُتَعَبَّدُ بها، ويجوز قبولها على رأي جمهور العلماء في تفسير النصوص واستنباط الأحكام، والعمل بمدلولها، إذا كانت صحيحة السند، كما يجوز قبولها في القضايا اللغوية، فهي تعدُّ شواهد يصح استنباط القواعد اللغوية منها، إذ هي أوثق من بيت شعر مجهول القائل!.

3 -أقسام القراءات[1]:

1 -**المتواترة**: هي التي نقلها جمعٌ لا يمكن تواطُؤُهم على الكذب عن مثلهم من أول السند إلى منتهاه. وغالب القراءات القرآنية التي يقرأ بها من هذا القسم.

2 -**المشهورة**: هي القراءة التي صح سندها ولم تبلغ درجة التواتر، ووافقت الرسم والعربية، واشتهرت عند القراء فلم يعدُّوها من الغلط أو الشذوذ. ومثالها قراءة (ما **أَشْهَدْنَاهُم**) بإسناد الفعل إلى نون العظمة للتكلم، و(ما **كُنتَ**) بتاء الخطاب مفتوحة، بدل إسنادها إلى تاء المتكلم (ما **أشهدتُهم**) في الأولى، و(وما **كُنتُ**) بتاء المتكلم في الثانية، كما هي القراءة المتواترة:﴿ مَّآ **أَشْهَدتُّهُمْ** خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا **كُنتُ** مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١]

3 -**الأحادية**: هي القراءة التي صحّ سندها وخالفت المصحف أو العربية أو كليهما، ولم تشتهر الاشتهار المذكور.

- مثال ما صحّ سندُه ووافق العربية، لكنه خالف المصحف: قراءة ((وكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ **صَالِحَةٍ** غَصْبًا)) بزيادة كلمة (صالحَةٍ) والقراءة المتواترة:﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩].

- مثالُ ما صحّ سندُه ووافق المصحف، لكنه خالف العربية، القراءةُ المروية عن أبي بكرة ((مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ **رَفَارِفَ** خُضُرٍ **وَعَبَاقِرِيٍّ** حِسَانٍ)) بالجمع في الموضعين (رَفَارِف) و(عَبَاقِرِيّ)، و وجه المخالفة في الموضع

[1] ينظر: مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص178-179، و نبيل إسماعيل: علم القراءات، ص41-46.

الثاني(عَبَاقِرِيّ)، إذ المعروف في اللغة أن ألف الجمع لا يأتي بعدها ثلاثة أو أربعة أحرف صحيحة. والقراءة السبعية المتواترة هي:﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴾ [الرحمن: ٧٦][1].

- مثالُ ما صحّ سندُه ووافق المصحف والعربية، لكنه لم يشتهر الاشتهار المذكور، قراءةُ ابن عباس –رضي الله عنهما– (**أَنْفَسِكُم**) بفتح الفاء بدل ضمّها كما في القراءة المتواترة (**أَنفُسِكُم**) من قوله–تعالى–:﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

4 -**الشَّاذَّة**: هي القراءة التي لم يصح سندها، وافقت الرسم والعربية أو خالفتها، أحدهما أو كليهما. وذلك مثل قراءة ابن السميفع (**نُنَحِّيكَ**) بالحاء بدل الجيم في قوله –تعالى–﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ ﴾[يونس: ٩٢]، والقراءة المنسوبة إلى أنس بن مالك –رضي الله عنه–(**مَلَكَ يومَ** الدِّينِ)، والمتواترة : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤]

5 -**المُدْرَجة**: هي التي زيد فيها عبارات بين الكلمات القرآنية على وجه التفسير. كالقراءة المنسوبة إلى سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– ((ولَهُ أخٌ أو أختٌ **مِنْ أُمِّهِ**)) بزيادة (مِن أُمِّهِ) والقراءة المتواترة بدونها ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾[النساء: ١٢]. ومثلها تلك المنسوبة إلى ابن عباس ((لَيْسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَّبِّكُمْ **فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ**)) بزيادة (فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ)، والمتواتر: ﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ ﴾[البقرة: ١٩٨].

6 -**الموضُوعة**: هي التي نُسِبَت إلى قائِلِها من غيرِ أصلٍ، أي من غير سندٍ مطلقًا، أو هي المكذوبةُ المختلقةُ المصنوعةُ المنسوبةُ إلى مَن رُوِيَتْ عنه افتراءً. ومثالها المنسوبُ إلى أبي حنيفة زورا ((إنّمَا يخشَى **اللهُ** مِنْ عبَادِهِ **العُلَمَاءَ**)) برفع لفظ الجلالة على الفاعلية، ونصب لفظ (العلماءَ) على المفعولية، بخلاف المتواترة ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[فاطر: ٢٨][2]

---

[1] الرفارف: الثياب وقيل الرياض، والعبقري: البسط. ومثلها قوله –تعالى–:﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ [الأعراف: ١٠]، فقد قرأ بعضهم (مَعَائِش) بالهمز بدل الياء، وهو جمع لا يعرف له مفرد في اللغة.

[2] المدرجة والموضوعة لا تُعَدَّان من القراءات، وإنما سُمِّيَتَا كذلك نسبة إلى صاحبها أو من رواها منسوبة إليه إذ يعتقدها قراءة.

4-فوائد تعدد القراءات الصحيحة[1]:

- التخفيف والتيسير على الأمة.
- إظهار كمال البلاغة ونهاية الإعجاز وجمال الإيجاز.
- إعظام أجر هذه الأمة بنظرها في هذه القراءات واستجلائها الحِكَم والأحكامَ منها.
- بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم بتلقيها كتاب الله هذا التلقي.
- ظهور سرِّ الله –تعالى– في توليه حفظ كتابه العزيز وصيانة كلامه المنزَّل بأوفى بيان.
- بيان صحة وجه من وجوه النحو ولغة من لغات العربية كما في قراءة حمزة ((والأرحامِ)) بالكسر جرًّا عطفًا على الضمير المجرور بالباء من قوله –تعالى–:﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ ﴾ [النساء: ١].
- الجمع بين حكمين مختلفين بالجمع بين القراءتين كما في قوله –تعالى–:﴿ فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلۡمَحِيضِۖ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ ﴾[البقرة: ٢٢٢]، فقد قرأ حمزة والكسائي (يَطَّهَّرْنَ) بفتح الطاء مشدَّدَةً، وقرأ الباقون (يطْهُرْنَ) بسكون الطاء وضمِّ الهاء تخفيفا، فجُمِع بين القراءتين بجعل المخفَّفةِ مبيِّنةً للمثقَّلة، فلا يجوز للرَّجل أن يقرب امرأته حتى تطْهُر بانقطاع دم الحيض، وتَطَّهَر بالماء بالاغتسال.
- الدلالة على حكمين شرعيين مختلفين، ومثاله قوله –تعالى–:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ ﴾[المائدة:٦]، فقد قرأ نافع وابن عامر والكسائي بكسر اللَّام في (أَرْجُلِكُم) على الجرّ، والباقون بالفتح نصبًا. وقراءة النصب تفيد وجوب غسل الرجلين في الوضوء، بينما تحتمل قراءة الجرِّ المسح على الخُفَّيْن أو الرِّجلين، دون الغسل. وقد جاءت السنة بالمسح على الخفين.

5-القرّاء السبعة: (أصحاب القراءات السبعة المتواترة)[2]

1 -ابن عامر (-118هـ): أبو عمران عبد الله بن عامر اليحصبي الشامي (تابعي).

2 -ابن كثير (-120هـ): أبو معبد عبد الله بن كثير الداري المكي (تابعي).

[1] ينظر: مناهل العرفان: ج1/125-127، ومناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص180-181، و الوجوه البلاغية في توجيه القراءات القرآنية المتواترة: محمد احمد عبد العزيز الجمل،أطروحة دكتوراه (غير منشورة)،كلية الشريعة، جامعة اليرموك، أربد، الأردن،2005، ص87-93.

[2] والقراء الثلاثة المتممون للعشرة هم: أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني(-130هـ)، ويعقوب بن إسحاق الحضرمي(- 205هـ)، وخلف بن هشام البزّار(-229هـ). تنظر ترجمة هؤلاء في: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص181-185، ومحمد الجمل: الوجوه البلاغية في توجيه القراءات القرآنية المتواترة، ص51-68.

3 -عاصم (– 127هـ): أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي الكوفي.

4 -أبو عمر بن العلاء البصري (–154هـ).

5 -حمزة (–156هـ): أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي.

6 -نافع (–169هـ): أبو رويم نافع بن عبد الرحمان بن أبي نعيم المدني.

7 -الكسائي (–189هـ): ابو الحسن علي بن حمزة الكوفي.

الدرس القاسع

مناهج التفســــــــير ونقدها

أولا: التفسير والتأويل

1 -**تعريف التفسير:**

- **لغة:**

التفسير من الفعل (فسَّر) المضعّف، وجذرُه (فَسَرَ)، من (الفَسْر) وهو البيانُ والكشفُ والإيضاحُ [1]. قال – تعالى-:﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣]، أي: أحسنَ بياناً وإيضاحًا وتفصيلًا[2]. وقيل هو مقلوب (السَّفْر)، يقال: أَسْفَرَ الصبحُ، إذا أضاء وانكشف، وسَفَرَتِ المرأةُ سُفُورًا، إذا كشَفَتْ عن وجهها وأَلْقَتْ عنه خمارَها، وهما متقاربان في المعنى. وفرَّق بينهما قوم فقالوا: (الفسْرُ) متعلِّقٌ بإظهار المعاني المعقولة، و(السَّفْرُ) متعلِّقٌ بإبراز الأَعْيَان(الأشياء المحسوسة)[3].

- **اصطلاحا:**

- عرّفه أبو حيان الأندلسي بالقول: "هو علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحْمَلُ عليها حالة التركيب، وتتمَّات لذلك"[4].
- وعرّفه الزّركشي فقال: "علمٌ يُعرَف به فهمُ كتاب الله المنزَّل على نبيِّه محمَّدٍ –صلى الله عليه وسلم–، وبيانُ معانيه، واستخراجُ أحكامِه وحِكَمِه"[5].
- وقال الزّرقاني في تعريفه: "علمٌ يُبحَث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالتُهُ على مراد الله –تعالى– بقدر الطاقة البشرية"[6].

2 -**تعريف التأويل:**

---

[1] ينظر: معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، أبو الحسين أحمد، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون،دار الفكر، د/ ط–ت، ج504/4

[2] ينظر: تفسير ابن كثير، ج109/6، والبرهان في علوم القرآن: ج148/2، و لم ترد لفظة (التفسير) في القرآن إلا في هذا الموضع.

[3] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج148/2.

[4] تفسير البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1993/1، ج121/1. والمراد بـــ(تتمات ذلك) ما يحتاج إليه في التفسير من علوم القرآن كالناسخ والمنسوخ وأسباب النزول والمكي والمدني وغير ذلك. وانظر في شرح التعريف الصفحة نفسها.

[5] البرهان في علوم القرآن: ج13/1.

[6] مناهل العرفان:ج06/2.

- **لغة:** مأخوذٌ من (الأَوْل) وهو الرُّجوع ، يقال: آلَ –يؤولُ– أَوْلً ومَآلًا ، أي: رَجَع. والمآلُ: العاقبةُ والمصيرُ، وتأويل الكلام: عاقبته وما يؤول إليه، ومنه قوله –تعالى–:﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ ﴾ [الأعراف: ٥٣]، أي: ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم. وقيل: هو من الإِيَالة، وهي السياسة، يقال: آلَ الرجلُ رعيَّته يؤولُها: إذا أحسن سياستَها. وكأنَّ المُؤَوِّلَ للكلام ساسَ الكلامَ ووضع المعنى في موضعه[1].
- **اصطلاحا:** له معنيان[2].

أ –عند السلف:

- تأويل الكلام : ما يؤول إليه، بأن يرجع إلى حقيقته التي هي عين المقصود. ومنه قوله –تعالى–:﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾ [الأعراف: ٥٣]، فالتأويل في الآية مجيءُ ما أخبر القرآن بوقوعه من القيامة وأشراطها، ووضع الموازين، والجنة والنار..أي: هل ينظرون إلا تحقُّقَه ووقوعَه؟
- تأويل الكلام: تفسيره وبيان معناه، وهو ما يعنيه ابن جرير الطبري في تفسيره حين يقول: (القول في تأويل قوله –تعالى– كذا وكذا..) ويقول: (اختلف أهل التأويل في قوله– تعالى–..) فإنه يريد التفسير.

ب عند المتأخرين:

التأويل صرف اللفظ عن معنى راجح إلى معنى مرجوح لدليل يقترن به [3]. وهذا المعنى شائع عند الأصوليين، ومثاله تخصيص عموم البيع في قوله –تعالى–:﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] بالأحاديث التي نَهَتْ عن بيع الغرر، وعن بيع الإنسان ما ليس عنده، فالمعنى الظاهر في الآية حِلِّيَّةُ البيع، كلِّ بيعٍ، والمعنى المرجوح هو حليَّةُ كلِّ بيعٍ لم يخصَّه الدليل الشرعي بالمنع والتحريم[4].

---

[1] ينظر: معجم مقاييس اللغة: ج1/159–160،162، والإتقان في علوم القرآن: ص2261.

[2] ينظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص325–326، والجداول الجامعة في العلوم النافعة: ص146، وموسوعة علوم القرآن: عبد القادر منصور، دار القلم العربي، حلب، سورية، ط1/2002، ص173–175 ولمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير:د. محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 3/1990، ص189، وذكر أن هذا التقسيم إلى معنيين أحدهما عند المتقدمين والأخر عند المتأخرين، هو ما توصل إليه ابن تيمية في تحقيق القول في كلمة التأويل عند السلف وعند المتأخرين، في مجموع الفتاوى: ج13/283.

[3] ينظر:مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص 326، والجداول الجامعة في العلوم النافعة: ص 146. والمعنى الراجح هو المعنى الظاهر، والمرجوح غير الظاهر، ولذلك قال د.محمد شلبي في تعريفه:"صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى آخر يحتمله اللفظ بدليل صحيح يدل عليه". ينظر: أصول الفقه الإسلامي: د.محمد مصطفى شلبي، الدار الجامعية، بيروت، لبنان، ط4/1983، ج1/469.

[4] ينظر: علم أصول الفقه: عبد الوهاب خلاف، دار الزهراء، الجزائر، ط2/1993، ص164.

وعبّر عن هذا المعنى البعض بالقول: "إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخِلّ ذلك بعادة لسان العرب من التجوز، من تسمية الشيء بشبيهه ...أو لاحقه أو مقاربه...أو غير ذلك من الأشياء التي تُعُورِفَت في أصناف الكلام المجازي"[1].

3 -**الفرق بين التفسير والتأويل**[2]:

أ – إذا أُرِيدَ بالتأويل تفسيرُ الكلام وبيانُ معناه، فالتفسير والتأويل على هذا متقاربان، ومنه دعاءُ النبيِّ –صلى الله عليه وسلم– لابن عبّاسٍ –رضي الله عنهما–: "اللّهمَّ فقِّههُ في الدِّين وعلِّمهُ التأويلَ" (رواه أحمد).

ب -إذا أُرِيدَ بالتأويل تحقُّقُ الشّيءِ برجوعِه إلى عاقبتِه ومآلِه، أي تحقُّقُ نفسِ المرادِ بالكلام، فالفرقُ بينهما كبيرٌ، لأن التفسيرَ شرحٌ وإيضاحٌ للكلام، ويكونُ وجودُه في الذِّهن متعلِّقا به، وفي اللِّسان بالعبارة الدَّالةِ عليه، أمَّا التأويلُ فهو نفسُ الأمورِ الموجودةِ في الخارج، فإذا قيل: (طَلَعت الشمسُ) فتأويلُه هو نفسُ طلُوعِها. وهذا هو الغالب في لغة القرآن، ومنه قوله–تعالى–:﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٥٣].

ت -التفسير ما جاء مُبيَّنًا و مُعَيَّنًا في كتاب الله أو في صحيح السنة النبوية، لأن معناه قد ظهر ووضُح. أما التأويل فما استنبطه العلماء بالاجتهاد بآرائهم، ولذلك قالوا: "التَّفْسِيرُ مَا تَعَلَّقَ بِالرِّوَايَةِ، والتَّأْوِيلُ مَا تَعَلَّقَ بِالدِّرَايَةِ"[3].

ث -التفسير أكثر ما يستعمل في الألفاظ والمفردات، والتأويل أكثر ما يستخدم في المعاني والجمل.

4 -**شروط المفسر**[4]:

1 -صحة الاعتقاد: فمن لم تسلم عقيدته لم يُؤْتَمَنْ على كتاب الله، وقد يقول فيه بمذهبه الباطل.

2 -التجرد عن الهوى: فمن كان هَوَاهُ تابِعًا ربما دفعه لقول غير الحق وتأويل القرآن بما يوافق وهواه.

---

[1] فصل المقال: ابن رشد، ص 14، نقلا عن: علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه: د.عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي، ط1981/1، ص402. ونقَل في الصفحة نفسها قول أبي حامد الغزالي في المستصفى: ج 157/1 " ويشبه أن يكون كلُّ تأويل صرفا للفظ عن الحقيقة إلى المجاز" مؤيِّدًا به قول ابن رشد. وقد أورد د.محمد رجب البيومي أمثلة من القرآن فيها صرف للفظ عن معناه الظاهر الراجح(الحقيقة) إلى معنى آخر غير ظاهر مرجوح (المجاز). ينظر: خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية،السنة الثالثة، الكتاب الثاني والأربعون، الأزهر، القاهرة،ديسمبر 1971:ص12–13.

[2] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج2/149–152، والإتقان في علوم القرآن:ص2261–2264، ومناهل العرفان: ج2/07–08،

[3] يقول عبد الوهاب خلاف في هذا المعنى:"و يظهر من مقارنة التفسير بالتأويل أن كلا منهما تبيين للمراد من النص، ولكن التفسير تبيين للمراد بدليل قطعي من الشارع نفسه، ولهذا لا يحتمل أن يراد غيره. وأما التأويل فتبيين للمراد بدليل ظني بالاجتهاد، وليس قطعيا في تعيين المراد، ولهذا يحتمل أن يراد غيره".ينظر: علم أصول الفقه: ص167–168.

[4] ينظر:الإتقان في علوم القرآن:ص 2274–2284،ومباحث في علوم القرآن:مناع القطان، ص 229–331، ولمحات في علوم القرآن: 194–195.

3 -أن يبدأ أوّلا بتفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة لأنها شارحة للقرآن، قال-تعالى-: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]،وقال- عليه السلام-: "ألا إني أوتيتُ القرآنَ ومثلَهُ معهُ" (رواه أبو داود)، والمِثْل هو السنة. فإن لم يجد رجع إلى أقوال الصحابة لأنهم عاصروا التنزيل وشاهدوا القرائن والأحوال عند نزوله، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح. فإن لم يجد عند هم ما يعينُه على التفسير رجع إلى التابعين كمجاهد وعطاء وعكرمة والحسن البصري وابن المسيب وقتادة والضحاك وغيرهم..

4 -العلم باللغة العربية وعلومها [1].

5 -العلم بأصول العلو م المتصلة بالقرآن كعلم التوحيد وعلم أصول الفقه وعلم القراءات و علم الناسخ والمنسوخ وعلم أسباب النزول وغير ذلك.. [2]

6 -دقة الفهم التي تمكِّن المفسر من ترجيح معنى على آخر، أو استنباط معنى يتفق مع أصول الشريعة[3].

5 -**تاريخ التفسير[4]:**

أ -في عهد النّبيِّ-صلى الله عليه وسلم-:

نشأ التفسير مع نزول القرآن الكريم، فقد كان ينزل منه المجملُ والعامُّ والمطلَقُ، فتأتي الآية مبيِّنة أو مخصِّصة أو مقيِّدة، فيفسَّرُ القرآنُ بالقرآن..وأمرَ الله -تعالى- نبيَّه- عليه السلام- ببيانِ ما نُزِّلَ للناس فقال: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، فامتثَلَ -صلى الله عليه وسلم- الأمرَ ولم يقصِّر، غير أنَّ بيانه وتفسيره -عليه السلام- لم يكن للقرآن كلِّه، وإنما كان بقدر حاجة الناس، فالصحابة الذين تَلَقَّوا القرآن عن النبي- صلى الله عليه وسلم-كانوا أهلَ فصاحة وبيان، واللغةُ العربية التي بها نزل القرآن بلَغتٌ زمنهم ذُروتَها، فكانوا يفهمون لغته وأسلوبه، وما كانوا ليسألوا إلا عمّا خفي عنهم المراد منه، وقَصُر الاستعمالُ عن إدراكه.. فإذا سألوا أجاب النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- وبيَّنَ، اللهمّ إلا أن يتعلَّقَ السؤالُ بأمر استأثر الله بعلمه [5]. كما أنه كان -عليه

---

[1] عقد السيوطي في كتابه (الإتقان) ثلاثة فصول لها علاقة باللغة، عنون اثنين منها بـــ(معرفة الأدوات التي يحتاج إليها المفسر) والثالث بـــ(قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها). ينظر: إتقان في علوم القرآن: ص1153، 1219،1266.

[2] العلوم التي يحتاج إليها المفسر عديدة أوصلها بعضهم إلى خمسة عشر علما. ينظر: الإتقان في علوم القرآن:ص 2293-2297، ولمحات في علوم القرآن: ص192-194.

[3] عقد الزركشي فصلا بعنوان(في حاجة المفسر إلى الفهم والتبحر في العلوم)، ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج2/153-156.

[4] ينظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص 232-242، والواضح في علوم القرآن: ص213-217، ولمحات في علوم القرآن: ص 197-216

[5] ورد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنّ التفسير أربعة: حلال وحرام لا يُعذَرُ أحدٌ بجهالته، وتفسير تفسره العرب بألسنتها، وتفسير تفسره العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله". ينظر: مناهل العرفان: ج2/11.

السلام– يفسِّر ويوضِّح أحيانا المرادَ من بعض ألفاظ وآي القرآن وإن لم يسألوا لعلمِه –صلى الله عليه وسلم– بحاجتهم إلى ذلك البيان، فربّما توهَّم أحدُهم فَفهِم معنًى ظاهرًا وهو غيرُ مُراد ! ومن تفسيره –عليه السلام– قوله عن (الكوثر)" نهرٌ وَعَدَنِيهِ اللهُ في الجنّة"(متفق عليه). وقوله بعد أن تلا قوله تعالى:﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾[الأنفال: ٦٠] :" أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ"(رواه مسلم)

ب في عهد الصحابة– رضي الله عنهم–:

لا شك أن الصحابة –رضوان الله عليهم– قد عاصروا نزول القرآن الكريم، فهم أعلم الناس بعد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بالخطاب القرآني وما يراد منه، ولا شك أنه كان يَعرِضُ لهم أن يُسأَلوا عن الآية ومعناها، وقد انتشر الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجا، عربا وعجما، فكان منهم مَن يتحرّجُ أن يقول في القرآن، فربما قال بغير علم ! ووجود هذا الحرج لا يعني عدم وجود تفسير للقرآن زمنَهم، فمادته موجودة، ولئن كان بعضُهم أو كثيرٌ منهم وجَد الحرجَ تحفظا وخوفا من الخطإ، فإن البعض الآخر قد أفاد من تلك المادة التفسيرية القائمة على تفسير القرآن بالقرآن أوّلا، والقرآن يفسر بعضه بعضا ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، والقائمة على ما حفظوا من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من تفسير وبيان ثانيا، وعلى ما كانوا يستنبطونه من الآيات ثالثا اعتمادا على قوة فهمهم، وسعة إدراكهم، ومعرفتهم بأوضاع اللغة وأسرارها، وحفظهم لأشعار العرب وحكمهم وأمثالهم، ودرايتهم بأحوال الناس وعاداتهم في شبه الجزيرة العربية، إضافة إلى ما كانوا يسمعونه من أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام وحسُن إسلامهم..ولذلك ولذلك فقد ورَّث الصحابة من أمثال الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وأَبَيٍّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، وغيرهم –رضي الله عنهم أجمعين–[1] ثروةً تفسيرية عُدَّت الأرضيةَ التي انطلق منها مَن بعدَهم من المفسرين، والقبسَ الذي اهتدوا به في سلوك درب علم التفسير..

ت في عهد التابعين:

كان عهد التابعين أكثر حاجة إلى علم التفسير من عهد الصحابة، ذلك أن الإسلام قد انتشر، فتشعبت ديار المسلمين، وبعدت أوطانهم، وفيهم العرب والعجم، وتسلّل اللحن إلى لغة العرب وبيانهم، وبدت الحاجةُ مُلِحَّةً إلى معرفة أحكام القرآن وحِكَمه، وأغراضه ومعانيه، فانتدب إلى هذه المهمة جماعة من التابعين الذين أخذوا التفسير عن الصحابة عن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، فلم يبتعد منهجُهم في التفسير عن منهج الصحابة، فاعتمدوا القرآن نفسه في تفسير القرآن، ثم السنة النبوية وأقوال الصحابة، واتخذوا الاجتهاد والنظر سبيلا لهم إلى جانب سبيل الأثَر

[1] وهؤلاء هم المفسرون العشرة الأشهر من الصحابة. ينظر: الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ص2325.

والرِّواية، وهم يملكون من أدوات الفهم والبيان ما يُمَكِّنهم من الاستنباط وبذل الوسع في الوصول إلى المراد، هذا إضافة إلى ما أخذوه من أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام.

واشتهر من التابعين أعلامٌ كانوا مرجعا لأهل المصر التي يقيمون فيها ولغيرهم في التفسير، فكانوا مقصدا لطلاب هذا العلم الشريف..فكان بمكة مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس اليماني، وعطاء بن أبي رباح، وهؤلاء من مدرسة ابن عباس –رضي الله عنهما-. وبالمدينة مدرسة الصحابي الجليل أُبَيِّ بن كعب، وأعلامُها من تلامذته زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي.. وأما مدرسة العراق فانتسابها إلى الصحابي عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-، ومن أعلامها علقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد، ومرّة الهمذاني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي..وقد عُرِف عن هذه المدرسة توسُّعُها في الرّأي.

ث عصر التدوين:

والمقصود به العصر الذي بُدئ فيه بتدوين هذا العلم، علم التفسير، وقد مرّ بمراحل عدة:

- **المرحلة الأولى:** هي مرحلة البدء في التدوين، في عهد بني أمية وأوائل العهد العباسي، وأوَّلُ ما دُوِّنَ الحديثُ الشَّريفُ، وكان التفسيرُ بابًا من أبوابه. وقد كانت العناية بجمع الحديث في هذه المرحلة كبيرة، فكان المهتمون والمشتغلون بالحديث أوَّلَ الأمر يجوبون البلاد وينتقلون بين الأمصار طلبًا للحديث، ليجمعوا إلى جانبه التفسيرَ المرويَّ عن النّبيِّ-صلى الله عليه وسلم- أو عن الصحابة، واشتدت عناية جماعة بذلك، منهم يزيد بن هارون السّلمي(-117هـ)، وشعبة بن الحجاج (- 160هـ)، ووكيع بن الجراح(- 197هـ)، وسفيان بن عيينة (205هـ)..وهؤلاء لم يصل إلينا من تفاسيرهم شيءٌ، وإنما نُقِل تفسيرُهم مروِيًّا بالسند عنهم في كتب التفسير بالمأثور.

- **المرحلة الثانية:** انفصل فيها التفسير عن علم الحديث، وأصبح علما قائما بذاته، يتتبع القرآن بالتفسير آية آية، بحسب ترتيب المصحف الشريف، وكان ذلك بأيدي طائفة من العلماء منهم: ابن ماجه (- 273هـ)، وابن جرير الطبري(-310هـ)، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري(- 318هـ)، وابن أبي حاتم(- 327هـ)، وأبو الشيخ بن حبان (-369هـ)، والحاكم (-405هـ)، وأبو بكر بن مردويه (-410هـ).. وتفاسير هؤلاء مروية بالسند إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- والصحابة والتابعين وأتباعهم، مع الترجيح أحيانا بين الآراء، وبيان بعض الأحكام. والإعراب عند الحاجة كما فعل ابن جرير الطبري[1].

[1] ينظر: مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، 291.

-**المرحلة الثالثة**: في هذه المرحلة جاء أقوام وحاولوا اختصار الأسانيد، إذ كان مَن قبلَهم يعتمد الإسناد والرواية، وذلك وفق منهج أهل الحديث، ولا غرو فقد دُوِّن علم التفسير أول الأمر بين دفّات مصنَّفات الحديث، فكانوا يكتبون السند كلَّه إلى الرسول–صلى الله عليه وسلم– أو إلى الصحابي أو التابعي..فجاء هؤلاء ليختصروا فحذفوا الأسانيد، ونقلوا أقوالا دون أن ينسبوها إلى قائليها، فكان ذلك بابًا لأن يدخل الوضع في التفسير، ويلتبس الصحيحُ بالعليل، وصار بعض المفسرين يجمع شتات أقوال، وكلما خطر بباله شيءٌ اعتمده، لِيأتيَ مَن بعدَه فينقُلَ عنه دون أن يتحرّى الصوّاب !

-**المرحلة الرابعة**: وهي أوسع المراحل، امتدت من العصر العباسي إلى يومنا هذا، وفيها تحول التفسير من الاعتماد على النقل والرواية عن السلف ليختلط بالعقل والرأي، والتأثرِ بمذاهب الفرق الإسلامية واعتقاداتها، وبالعلوم الكثيرة التي نشطت بنشاط حركة التدوين والترجمة، وأصبح الاعتماد على الفهم الشخصي، وتحكَّمت الاصطلاحاتُ العلمية والمذاهب الفكرية والثقافة الفلسفية[1].. فغابت بذلك روحُ التفسير، التي تجعل " هدفه الأعلى تجلية هدايات القرآن وتعاليم القرآن وحكمة الله –تعالى– فيما شرع للناس في هذا القرآن، على وجه يجتذب الأرواح، ويفتح القلوب، ويدفع النفوس إلى الاهتداء بهدي الله. وهذا هو الخليق باسم التفسير، وفيه يساق الحديث إذا تكلمنا عن فضله والحاجة إليه"[2].

[1] وتجدر الإشارة هنا إلى أنه وبإزاء التفسير العام في مراحل التدوين المختلفة كان التفسير الموضوعي للقرآن يسير معه جنبا إلى جنب، ومن أمثلة ما كتب في ذلك (مجاز القرآن) لأبي عبيدة،و(أسباب النزول) للواحدي،و(الناسخ والمنسوخ) لأبي جعفر النحاس،و(أقسام القرآن) لابن قيم الجوزية، ...

[2] مناهل العرفان: ج2/08.

الدرس العاشر

مناهج التفسيـــــــــــر ونقدها

ثانيا: التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي

أ –التفسير بالمأثور:

1 –**تعريفه:**

هو تفسير القرآن الكريم بما جاء في القرآن أو السنة أو أقوال الصحابة –رضي الله عنهم– والتابعين [1]، مما ليس منقولا عن أهل الكتاب، دون سَوْقٍ لزيادة على ذلك، إلا أن يكون شرحا لغويا لكلمة أو إعرابا لجملة أو نحو ذلك.

فهذا الاتجاه يتوخى الآثار الواردة في الآية فيذكرها ولا يجتهد في بيان معنًى من غير أصل، ويُعرِض عمَّا لا طائلَ تحتَه ولا فائدة في معرفته[2].. وهو أقدم الاتجاهات في التفسير، وأهمُّها وأجدرها بالعناية..[3]

– ومثال تفسير القرآن بالقرآن قوله–تعالى–:﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: ٣٧]، فقد جاء بيان هذه الكلمات في قوله–سبحانه–: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣]. وقوله–تعالى–:﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة: ١]، فسَّرَ الاستثناءَ فيه قولُه–سبحانه–: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣][4].

---

[1] في عدِّ رواية التابعين من التفسير بالمأثور خلاف، فاعتبرها البعض منه،لأنهم في الغالب تلقوا عن الصحابة. ورآها آخرون من التفسير بالرأي. ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج2/158، ومناهل العرفان: ج2/13. وذهب البعض إلى أن الصواب هو:" أن ما جاء عن الصحابة والتابعين العدول فيما ليس من باب الاجتهاد والاستنباط، وإنما هو متوقف على السماع من النبي–صلى الله عليه وسلم– يُعَدُّ من التفسير بالمأثور، وهو مُلزِمٌ إن صحَّ سندُه. وأما القوال المنقولة عنهم مما يتصل بالاجتهاد والاستنباط فليست من التفسير بالمأثور" ا.هـــ. لمحات في علوم القرآن: ص263.

[2] ينظر: مناهل العرفان: ج2/12، والواضح في علوم القرآن: ص236، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص347.

[3] ينظر: لمحات في علوم القرآن: ص260.

[4] ينظر: مناهل العرفان: ج2/ص12.

- ومثال تفسير القرآن بالسنة: ما ورد في صحيح البخاري في بيان قوله–تعالى–:﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ ﴾[البقرة: ١٨٧]، من أن عديَّ بن حاتم –رضي الله عنه– قال": قلتُ: يارسول الله: (الخيط الأبيض من الخيط الأسود)، أهما الخيطان: قال–صلى الله عليه وسلم–: إنك لَعَرِيضُ القَفَا إن أبصرتَ الخيطين..ثم قال: لا.. بل هو سواد الليل وبياض النهار "[1]. ومنه أيضا تفسير النبي–صلى الله عليه وسلم– (الظلم) في قوله–تعالى–﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٢] بالشرك، مؤيِّدًا ذلك بقوله–سبحانه–:﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان: ١٣][2].

- وأما مثال ما روي عن الصحابة ما جاء في صحيح البخاري في تفسير قوله–تعالى– ﴿ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ ﴾ [المائدة: ٩٠]:"قال ابن عباس: الأزلام القداح يقتسمون بها في الأمور، والنصب: أنصاب يذبحون عليها"[3].

- وأما عن التابعين فمثاله ما جاء في صحيح البخاري في تفسير قوله–تعالى–: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ ﴾ [المائدة: ١٠٣] قال: "عن سعيد بن المسيب قال:البحيرة التي يُمنَع دَرُّها للطواغيت فلا يحلبها أحدٌ من الناس، والسَّائبة كانوا يُسَيِّبُونَها لآلهتم، لا يُحْمَل عليها شيءٌ"[4].

2 -**أشهر التصانيف في التفسير بالمأثور**[5]:

- تفسير الطبري محمد بن جرير (–310هـ) المسمَّى (جامع البيان في تأويل آي القرآن).
- تفسير السمرقندي أبي الليث نصر بن محمد (–373هـ) المسمَّى (بحر العلوم).
- تفسير الثَّعلبي أبي إسحاق أحمد بن إبراهيم (–427هـ)المسمَّى(الكشف والبيان عن تفسير القرآن).
- تفسير البغوي أبي محمد الحسين بن مسعود (– 510هـ) المسمَّى (معالم التنزيل).
- تفسير ابن عطية أبي محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي (– 546هـ) المسمَّى (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز).

---

[1] صحيح البخاري: ج44/6، وشرح معاني الآثار: ج53/2، نقلا عن: لمحات في علوم القرآن: ص262.

[2] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج156/2، ومناهل العرفان: ج13/2.

[3] صحيح البخاري: ج44/6، نقلا عن: لمحات في علوم القرآن: ص263.

[4] صحيح البخاري: ج46/6، نقلا عن:لمحات في علوم القرآن: ص263.

[5] تراجع هذه التصانيف وتراجم مصنِّفيها ومناهجهم فيها في: التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي،مكتبة وهبه، القاهرة، ط 2000/7، ج147/1–182، وبحوث منهجية في علوم القرآن: ص112–113.

- تفسير ابن كثير أبي الفداء اسماعيل بن عمرو (-774هـ) المسمَّى (تفسير القرآن العظيم).
- تفسير الثعالبي أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الجزائري (-876هـ) المسمى (الجواهر الحسان في تفسير القرآن).
- تفسير السيوطي أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (- 911هـ) المسمى (الدر المنثور في التفسير المأثور).

3 -**نقده:**

تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة الصحيحة المرفوعة إلى النبي-صلى الله عليه وسلم-لا خلاف في قبوله والأخذ به، وأمّا ما يُعزَى إلى الصحابة والتابعين-مما لم يرفع إلى النبي-صلى الله عليه وسلم- فقد يتطرق إليه الضعف من وجوه[1]:

1 -ما دسّه ووضعه أعداء الدين، من يهود وفرس، يريدون به هدم الإسلام وتشويه معانيه وقيمه، بضرب أول مصدر عند المسلمين وهو القرآن الكريم، وقد أعياهم مواجهته بالحجة والبرهان أو بالسيف والسنان.

2 -ما لَفَّقَه أصحابُ المذاهب السياسية المتطرفة من أمثال الشيعة الذين قدسوا عليًّا-رضي الله عنه- ونسبوا إليه ما هو منه براء.. أو من أمثال أولئك الذين أرادوا التقرب إلى حكام بني العباس من خلال التقوُّل على ابن عباس-رضي الله عنهما- بنسبة ما لم يثبت عنه إليه، طمعا في الدنيا وحطامها الزائل.

3 -اختلاط الصحيح بالعليل من الروايات، وخاصة بعد حذف الأسانيد في مرحلة من مراحل تدوين علم التفسير، فأصبحت تنقل من غير تحرٍّ أو تدقيق، فأدى ذلك إلى التباس الحق بالباطل. إضافة إلى ما كان من بعض الآراء أحيانا يعتمدها أصحابها من المفسرين من غير إسناد، فيأتي مَن بعدَهم فينقلها على اعتبار أنّ لها أصلا دون بحث أو تروٍّ.

4 – نقل بعض الروايات المليئة بالإسرائيليات عن أهل الكتاب، وهو أهم ما ينتقد به هذا الاتجاه، كالاختلاف في أسماء أهل الكهف وعددهم ولون كلبهم، وقد قال –تعالى-:﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٢٢]، واختلافهم في قدر سفينة نوح –عليه السلام- وخشبها، واسم الغلام الذي قتله الخضر، وفي أسماء الطيور التي أحياها الله

[1] ينظر: مناهل العرفان: ج2/20-21، مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص349، ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح: ص291.

لإبراهيم –عليه السلام–، وفي نوع شجرة عصا موسى–عليه السلام–..ونحو ذلك مما لا سبيل إلى معرفته إلا النقلُ الصحيح عن الرسول–صلى الله عليه وسلم– فإن وُجِد وإلا وجب التوقّف، وإن كانت النفس تسكن لما نقل في ذلك عن الصحابة، لأن نقلهم عن أهل الكتاب أقلُّ من نقل التابعين[1].

ب -التفسير بالرأي:

1 -تعريفه:

التفسير بالرأي هو إعمال العقل والنظر في فهم كتاب الله– تعالى– واستنباط معانيه وأحكامه. وقد بيَّن محمد حسين الذهبي الرأي المقبول بالقول: "والمراد بالرأي هنا الاجتهاد وعليه فالتفسير بالرأي، عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي، ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر"[2].

2 - موقف العلماء من التفسير بالرأي:

اختلف العلماء منذ القديم في جواز تفسير القرآن بالرأي، على رأيين[3]:

- الأول: يمنع أن يُفَسَّر القرآن الكريم بغير ما ثبت بالنقل الصحيح عن رسول الله–صلى الله عليه وسلم– أو عن صحابته–رضي الله عنهم– أو عن التابعين، على نحو ما بيِّن في التفسير بالمأثور، وإن جمع المفسِّر شروط التفسير وأدواته كلَّها.
- الثاني: وهو على العكس من الأول، وقد أجاز أصحابه التفسير بالرأي والاجتهاد، ورأوا أنّ مَن كان ذا أدب وسيع فموسَّعٌ له أن يفسِّر القرآن برأيه واجتهاده.

---

[1] وبخصوص الموقف من هذه الإسرائيليات، فإن ما وافق منها الكتاب والسنة مقبول، وإن كان في الكتاب والسنة الغُنيةُ، وأما ما خالفهما أو خالف أصلا مقرَّرًا في الدين فإنه مردود غير مقبول. وأما الروايات التي لا توافقهما ولا تعارضهما، فهذه المنهج في التعامل معها الحذر والحيطة والحياد، فقد تردُّ وهي صحيحة موافقة لهما، وقد تقبل وهي مكذوبة غير صحيحة، وقد قال النبي–صلى الله عليه وسلم– في الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي هريرة– رضي الله عنه–:"لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم ،﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]". ينظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان،ص 349،354–355، ولمحات في علوم القرآن:ص 264–268. وإن أردت الاستزادة فانظر: التفسير والمفسرون: ج1/221–244.

[2] التفسير والمفسرون: ج1/183.

[3] ينظر الرأيان وأدلة كل رأي في:مناهل العرفان: ج2/46–50، والتفسير والمفسرون: ج1/183–188.

والرأيان على طرفي نقيض، قال الراغب الأصبهاني: "وذكر بعض المحققين: أن المذهبين هما الغُلُوُّ والتّقصير، فمَن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيرا مما يحتاج إليه، ومَن أجاز لكلِّ أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله–تعالى–:﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]" [1].

ولذلك رأى المحققون من المجوزين أن التفسير بالرأي قسمان:

القسم الأول: تفسيرٌ بالرأي محمودٌ

وهو الذي لا يتعارض مع التفسير بالمأثور، بإعمال الفكر في كتاب الله –تعالى– على هدى سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأقوال السلف من الصحابة والتابعين، دون تعارض مع أصول الاعتقاد الصحيح وروح الشريعة.

وقد عبّر الزركشي عن هذا المعنى بمجموعة من الشروط التي يجب أن يستند إليها التفسير بالرأي حتى يكون مقبولا، نقلها عنه السيوطي، ولخصها الزرقاني في[2]:

- النقل عن الرسول–صلى الله عليه وسلم– مع التحرز عن الضعيف والموضوع.
- الأخذ بقول الصحابي، وخصَّه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه.
- الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلى ما لا يدل عليه الكثير من كلام العرب.
- الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدلُّ عليه قانون الشرع. وهذا النوع الرابع هو الذي دعا به النبي–صلى الله عليه وسلم– لابن عباس–رضي الله عنهما– في قوله:"اللهم فقِّهْه في الدين وعلِّمْه التأويل"(رواه البخاري).

وأشهر التفاسير بهذا المنهج[3]:

- تفسير الفخر الرازي محمد بن عمر فخر الدين المعروف بابن الخطيب (606هـ) المسمى (مفاتيح الغيب).
- تفسير القرطبي محمد بن أحمد بن فرح (–671هـ) المسمى (الجامع لأحكام القرآن).
- تفسير البيضاوي أبي الخير عبد الله بن عمر (–691هـ) المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل).
- تفسير النسفي أبي البركات عبد بن أحمد (–701 هـ) المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل).
- تفسير الخازن أبي الحسن علي بن محمد (–741هـ) المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل)

[1] مقدمة التفسير للراغب: ص422، نقلا عن: التفسير والمفسرون: ج188/1.

[2] مناهل العرفان: ج 42/2، ونقلها أيضا صبحي الصالح في: مباحث في علوم القرآن، ص 292. وهي في: البرهان في علوم القرآن: ج 156/2–161، والإتقان في علوم القرآن: ص2285–2288.

[3] تنظر هذه التفاسير وتراجم مؤلفيها ومناهجهم فيها في: التفسير والمفسرون: ج207/1–257، وبحوث منهجية في علوم القرآن: 113–114.

- تفسير أبي حيان الأندلسي أبي عبد الله محمد بن يوسف بن حيان (–745هـ) المسمى (البحر المحيط).
- تفسير الجلالين: جلال الدين المحلي محمد بن أحمد(–864هـ) وجلال الدين السيوطي (–911هـ) .
- تفسير أبي السعود محمد بن محمد العمادي (–952هـ) المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم).
- تفسير الخطيب الشربيني محمد بن محمد (– 977هـ) المسمى(السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كتاب ربنا الحكيم الخبير)
- تفسير الألوسي السيد محمود أفندي (–1270هـ) المسمى(روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)

القسم الثاني: تفسيرٌ بالرأي مذمومٌ[1]

وهو ما ليس من قبيل الأول، إذ لم يتوفر فيه شرطه، فتجد المفسِّر يعتمد على رأيه الخاص، واجتهاده المجرد الذي لا يتفق مع روح الشريعة، وليس له مستند من قرآن أو سنة صحيحة، أو أثر عن الصحابة أو التابعين، أو ربما خالف به ما شاع في الاستعمال ودلت عليه اللغة ..

وأكثر الذين تناولوا التفسير بهذا الاتجاه كانوا من أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطلة كالمعتزلة الذين يغلب على تفاسيرهم الطابع العقلي، والمذهب الكلامي، عملا بقاعدتهم المشهورة في التحسين والتقبيح(الحسَنُ ما حسّنه العقل، والقبيحُ ما قبّحه العقل) .. والشيعة الذين بالغوا وأسرفوا في حب الإمام علي–رضي الله عنه– وآله..

والباطنية الذين يقتصرون على الأخذ بباطن القرآن ويهملون ظاهره، معتمدين تأويلات فاسدة مخالفة لأصول الشرع وقواعد اللغة [2].. والصوفية الذين يغلب على تفسيرهم الشطحات التي تبعدهم عن النظم القرآني، وتُبهِم الكلام فلا يفقهه إلا مَن كان منهم أو على دراية بمذهبهم ومصطلحاتهم..

وعمَدَ هؤلاء، وهم يشتركون جميعا في مخالفة ظاهر القرآن واستلهام معان ما أنزل الله بها من سلطان، إلى القرآن فتأوَّلوه على رأيهم، وأخذوا يدسُّون مذاهبهم ويروِّجون لها من خلال تأويلاتهم، كتفسير الرماني أبي الحسن علي بن عيسى (– 384هـ)، والقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (– 415هـ)، والزمخشري محمود بن عمر (–

---

[1] ينظر: مناهل العرفان: ج2/42–43،63–65، ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، ص 294–297، والواضح في علوم القرآن: ص237–240.

[2] يعتمدون في أصل مذهبهم متأولين قول الله–تعالى–:، ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، ومن فرقهم: القرامطة نسبة إلى حمدان قرمط إحدى قرى واسط بالعراق، والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل، الولد الأكبر للإمام جعفر الصادق، وقد كانوا يعتقدون الإمامة فيه. ومذهب الباطنية عموما انتقل إليهم من المجوس. ومن تأويلاتهم الفاسدة قولهم إن الكعبة هي النبي، وأن الطهارة هي التبري من كل مذهب سوى متابعة الإمام، وأن الصيام هو الإمساك عن كشف السِّر.. ينظر: مناهل العرفان: ج 2/63. وللاستزادة عن الإسماعيلية والبهائية التي هي من القرامطة ومذاهبهم ومقولاتهم في القرآن، ينظر: التفسير والمفسرون: ج2/174–206.

538هـ) صاحب الكشاف، وتفسير الشريف المرتضى العلوي (– 436هـ) من خلال آماليه(غرر الفوائد ودرر القلائد) من المعتزلة [1].. وكتفسير (مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار) للمولى عبد اللطيف الكازالاني النجفي، وتفسير الحسن العسكري أبي محمد الحسن بن علي(– 260هـ)، وتفسير الطبرسي أبي علي الفضل بن الحسن(– 538هـ) المسمى(مجمع البيان لعلوم القرآن) من الشيعة الإمامية الاثني عشرية [2]..وتفسير القرآن العظيم للتستري أبي محمد سهل بن عبد الله (– 283هـ)، وتفسير الشيرازي أبي محمد روزبهان بن أبي نصر(– 666هـ) المسمى (عرائس البيان في حقائق القرآن)، والتفسير المنسوب إلى محي الدين بن عربي (– 638هـ)[3] من المتصوفة..

3 -**نقد التفسير بالرأي:**

قال صبحي الصالح: "والتفسير بالمأثور إذا اجتمع إليه حسن الاستنباط ، وسعة الثقافة، والمقدرة على الترجيح هو أولى التفاسير بالاعتبار "[4]. وهذا الذي ذكره عين المقصود من القسم الأول من قسمي التفسير بالرأي، وهو التفسير المحمود. فإذا كان التفسير بالرأي في نطاق الحدود المبينة في شرطه "فإن الحق يقضي بقبوله وإقراره، وهو الشيء الطبيعي الذي يقتضيه التفاعل مع الكتاب الكريم، واستنطاقه في شؤوننا المعاصرة"[5].

لكن مع ذلك يبقى أشد ما ينتقد به هذا الاتجاه، وإن كان محمودا، بالإضافة إلى الإسرائيليات التي طبعته، بل طبعت حتى بعض كتب التفسير بالمأثور، خوضه في كثير من الأحيان فيما لا طائل تحته[6].

[1] تراجع تفاسير المعتزلة وتراجم مؤلفيها ومناهجهم فيها في: التفسير والمفسرون، ج1/275 وما بعدها.

[2] تراجع هذه التفاسير وأخرى للشيعة الإمامية وتراجم مؤلفيها ومناهجهم فيها في: التفسير والمفسرون، ج2/35-173.

[3] يرجح البعض نسبته إلى عبد الرزاق القاشاني الباطني. تنظر هذه التفاسير وأخرى للمتصوفة في: التفسير والمفسرون: ج2/250-307.

[4] مباحث في علوم القرآن: ص298.

[5] لمحات في علوم القرآن: ص284.

[6] ينظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص349. وأما التفسير بالرأي المذموم فيكفيه نقدا وصفه بالمذموم لما عرفت من أسباب !.

الدرس الحادي عشر

مناهج التفسيـــــــــــر ونقدها

ثالثا: التفسير اللغوي

1 -**تعريفه:**

يعَدُّ الاتجاه اللغوي من أقدم الاتجاهات التي وجدت في علم التفسير [1]، وهو يعنى بـ **"بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب"**[2]. والمقصود بـ(ما ورد في لغة العرب) ألفاظها وأساليبها التي نزل بها القرآن. وهذا قيد في التعريف يخرج به كل آلية غير آلية اللغة وألفاظها وأساليبها في تفسير القرآن. قال الشاطبي مبيِّنا الحاجة إلى العربية في فهم الشريعة وعدم جواز فهمها على غير لغتها: "لا بدَّ في فهم الشريعة من اتباع معهود الأمِّيِّين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرفٌ مستمرٌّ فلا يصحُّ العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثَمَّ عرفٌ، فلا يصِحُّ أن يُجرى في فهمها على ما لا تعرفه، وهذا جارٍ في الألفاظ والمعاني والأساليب"[3].

والقول باعتماد اللغة وألفاظها وأساليبها في تفسير القرآن لا يعني أنها المصدر الوحيد له، فكما عرفت فإن القرآن يفسر بالقرآن، ويفسر بالسنة النبوية، وبأقوال الصحابة والتابعين، ويحتاج في ذلك إلى معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغيرها من العلوم التي ليست من طريق اللغة، فيعلم بهذا أن "التفسير اللغوي جزء من علم التفسير، ومع أن حيِّزه كبير، فإنه لا يستقل بتفسير القرآن"[4].

2 -**أقسامه:**

الناظر في هذا الاتجاه من اتجاهات التفسير[5] يجده يضم في الجملة أقساما ثلاثة من علوم اللغة، وإن تداخلت أحيانا[1]:

---

[1] ينظر: لمحات في علوم القرآن: ص219.

[2] التفسير اللغوي للقرآن الكريم: د. مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، د.م، ط1/1432هـ، ص38.

[3] الموافقات: الشاطبي، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ج2/56، نقلا عن: التفسير اللغوي للقرآن الكريم: ص41. وقد زعمت الباطنية عدم الحاجة إلى اللغة العربية في فهم كتاب الله حتى يتسنى لهم تحريفه وتأويله بأهوائهم. ينظر: المصدر نفسه: ص48.

[4] التفسير اللغوي للقرآن الكريم: ص50.

[5] هو عند محمد زغلول سلام أحد جداول ثلاثة شغلت علماء اللغة والبيان المهتمين بلغة وأسلوب القرآن في القرن الثالث الهجري، وهي: التفسير بالمأثور، والتفسير اللغوي النحوي، وبحوث البيان وفنون التعبير المختلفة في القرآن. ينظر: أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري: د. محمد زغلول سلام، تقديم: د.محمد خلف الله أحمد، مكتبة الشباب، المنيرة، ط1/د.ت، ص36-37.

- القسم الأول: ما يتعلق بمفردات اللغة.
- القسم الثاني: ما يتعلق بالنحو والقضايا الإعرابية.
- القسم الثالث: ما يتعلق بالبلاغة والأساليب البيانية.

وهذه الأقسام الثلاثة هي ما حوته الكتب المعروفة بكتب(معاني القرآن)، فقد عرّف د. مساعد الطيار مصطلح (معاني القرآن) بعد دراسة ونظر في هذه الكتب، وموازنة بينها في مضامينها، فقال: "وبعد هذا فإن (معاني القرآن) مصطلح يراد به: البيان اللغوي لألفاظ وأساليب العربية الواردة في القرآن "[2] وهو ما يعني أن (معاني القرآن) هي التفسير اللغوي للقرآن، وأن كتب المعاني هي من كتب هذا الاتجاه في التفسير[3].

أ – القسم المتعلق بالمفردات:

وقد عني بهذا القسم خاصة كتبُ (غريب القرآن)، ذلك أن من المفردات ما يكون غامضا غير معروف، لا يتوصل إليه إلا بجهد وتنقيب وعناء، فهو غريب غربة من ليس من أهل البلد ! ومنها ما يكون مستعملا معروفا عند قوم دون آخرين، فإذا وقع عند غيرهم استغربوه. وهذا القبيل كان حتى بين الصحابة الذين نزل فيهم القرآن، فقد غابت ع ن بعضهم دلالاتُ بعض المفردات، ونقل عنهم ذلك، كما في معنى كلمة(الأبّ) من قوله –تعالى-:﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١]،و قد سئل عنها أبو بكر الصديق– رضي الله عنه– فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم؟ كما أن عمر بن الخطاب–رضي الله عنه– قرأ هذه الآية وهو على المنبر، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبُّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلُّفُ يا عمر ! [4].

والقول بأن بعض الصحابة استعصى عليهم شيء من مفردات القرآن، فلم يعرفوا معناه، قد يكون صحيحا واقعا، وقد يكون تحرُّجا من القول في القرآن بالرأي، كما مرَّ معك من قبل.. وأيًّا كان الأمر فإن الحقيقة الثابتة هي

---

[1] ينظر: لمحات في علوم القرآن: ص219.

[2] التفسير اللغوي للقرآن: ص265.

[3] نقل السيوطي عن ابن الصلاح المحدِّث قوله:"وحيث رأيت في كتب التفسير (قال أهل المعاني) فالمراد بهم مصنفو الكتب في معاني القرآن، كالزجاج، والفراء، والأخفش، وابن الأنباري".ا.هـ. ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص728. والفرق بين كتب المعاني وكتب التفسير، أن الأولى تأخذ بعضا من مفردات أو آيات القرآن وتبين معناه، بينما تحاول كتب التفسير ألا تترك شيئا من القرآن إلا وتشرحه. ينظر: لمحات في علوم القرآن: ص232.

[4] ينظر: لمحات في علوم القرآن: ص220.

أنهم كانوا أقدر الناس على معرفة مرامي القرآن ومعانيه، وإن اختلفوا في الفهم، إذ إن ضابط ذلك قدرُ كلٍّ منهم من الإلمام والمعرفة بشعر ولغة العرب وأساليبها وعاداتها في كلامها[1].

وبيان غريب القرآن والتأليف فيه قديم، وأوَّلُ مَن يعزى إليه كتابٌ في ذلك هو الصحابي الجليل عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– ، وإن اختلفت الأقوال في ثبوته [2]، وحتى وإن لم ينقل عنه في ذلك كتاب، فالثابت هو أن ابن عباس –رضي الله عنه– هو صاحب أول مدرسة أسَّست لعلم التفسير وبيَّنت معالمه، وإليه يرجع الفضل في بعث وتنشيط الحركة التفسيرية، فلم يكن ممَّن تحرّج من الصحابة في البحث في معاني وألفاظ القرآن، بل كان يقبِلُ معتمدا تفسير القرآن بالقرآن وبما ثبت لديه من سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فإن لم يجد فيهما عاد إلى شعر العرب وكلامها، وهو القائل: (إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربي)، والقائل: (إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب). وقد أورد السيوطي في (الإتقان) مسائل ابن الأزرق المائة، وجواب ابن عباس عنها، مفسِّرا غريب كل آية ببيت من الشِّعر.

فكانت هذه المدرسة أول مدرسة تكشف عن أسلوب القرآن ومعانيه، بمقارنته بالأدب العربي، شعره ونثره. وكان ذلك تمهيدا لكثير من العلماء اللغويين من بعدُ لكي يتصدوا لغريب القرآن فيشرحوه بالشعر والمثل وكلام العرب الفصيح. فنشأت بذلك حركة كبيرة لجمع اللغة من القبائل والأمصار في جزيرة العرب، أسهمت ليس في بيان غريب القرآن وحسب، بل وفي حفظ اللغة العربية من الضياع، وتنقيتها من الدخيل، إضافة إلى الحفاظ على القرآن الكريم الذي بقي متدارسا مفهوما في غير بلاده التي نزل بلسان أهلها[3].

- **أشهر المؤلِّفين في علم غريب القرآن[4]:**

من أشهر الذين قيل إنهم ألفوا في هذا العلم وعُنوِنَت كتبُهم باسمه(غريب القرآن): أبان بن تغلب البكري (– 141هـ)، ومحمد بن السائب الكلبي الكوفي (– 146هـ)، وعلى بن حمزة الكسائي(– 182هـ)، ويحي بن المبارك اليزيدي (–202هـ)، وقطرب بن محمد بن المستنير (–206هـ)، ويحي بن زياد الفراء (–207هـ)، وأبو عبيدة معمر

[1] ينظر: أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري: د. محمد زغلول سلام، ص31.

[2] ينظر: لمحات في علوم القرآن: ص220–221. وربما جمع عنه بعض تلامذته من التابعين ما قاله في غريب القرآن في كتاب، كما جمع له علي بن أبي طلحة صحيفة في تفسيره، وهي أصحُّ المرويات عنه في التفسير. أما التفسير المنسوب إليه والمسمى(تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) فهو مروي من طريق واحدة، هي أوهى الطرق، على ما قاله المحققون، فقد روي من طريق السُّدِّي الصغير محمد بن مروان عن الكلبي، وهما متَّهمان بالكذب والوضع. ينظر: الإتقان في علوم القرآن:ص736، والتفسير والمفسرون، ج1/59،61–62.

[3] ينظر: أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري: ص32–33.

[4] ينظر: لمحات في علوم القرآن: ص 222. وذكر أن معظمها مفقود، وأما الثلاثة الأخيرة فموجودة وقد بيّن مناهج أصحابها فيها.ينظر: ص 222–231. وعدَّ السيوطي كتاب العزيزي (السجستاني) الأشهر، وكتاب الراغب الأحسن. ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص728.

بن المثنى (– 210هـ)، والأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (– 216هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (– 223هـ)، ومحمد بن سلام الجمحي (– 231هـ)، وثعلب أحمد بن يحي (– 291هـ)، وعبد الله بن مسلم بن قتيبة (– 276هـ)، وأبو بكر محمد بن عُزَيز السجستاني (– 330هـ) وكتابه مسمى بـ(نزهة القلوب)، والحسين بن محمد أبو القاسم المعروف بالراغب الأصفباني(–502هـ) وكتابه معروف بـ(المفردات في غريب القرآن).

وقد اتسمت مؤلفات هؤلاء " بالطابع اللغوي الذي يتناول معنى اللفظ من قريب على ضوء الشعر القديم وكلام العرب، ورُتِّبَت هذه الكتبُ حسب سور القرآن أو حسب أحرف الهجاء فيما بعد، بتناول الكلمات المفردة.."[1]. ويُعَدُّ كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى (–210هـ) أول مؤلَّف محفوظ في الدرس اللغوي في القرآن، وإن لم يصل إلينا كتابه في (غريب القرآن)[2].

ب القسم المتعلق بالنحو والقضايا الإعرابية:

صاحَب التأليفَ في علم (غريب القرآن) حركةُ الكتابة في النحو و(إعراب القرآن)، وقد عُرِفت الكتب التي عُنِيت باللغة والنحو خاصة بـ(كتب المعاني) ، لعدم انفصالهما عن بعضهما غالبا في التأليف، وإن غلب جانب على آخر[3].

ومِن أشهر مَن كتب في ذلك الفراء(– 207هـ)، والمبرّد أبو العباس محمد بن يزيد (– 286هـ)، وثعلب أحمد بن يحي (–291هـ)، والتبريزي يحي بن علي(–508هـ)، والأنباري أبو البركات أحمد بن محمد(–577هـ) [4].. وبالنظر إلى الثروة التفسيرية في هذا الجانب من جوانب اللغة يمكن تصنيف الكتب فيها صنفين[5]:

- كتب اهتمت بتفسير القرآن الكريم كلِّه، أو المُشْكَل منه فقط، مع عناية خاصة بالنحو، وإنْ حوَت بعض فنون اللغة الأخرى، كالغريب واللغة أو البلاغة والبيان مثلا. ومنها (معاني القرآن) للفراء (– 207هـ)، وهو أول ما أُلِّف في هذا الباب [6]، و(البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي(– 745هـ)، و(الدُّرُّ المَصُون في علوم الكتاب

[1] أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري: ص35.

[2] نفسه: ص38.

[3] ينظر: أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري: ص35.

[4] ينظر: لمحات في علوم القرآن: ص231.

[5] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص 1219، ولمحات في علوم القرآن: ص231–232.

[6] وذلك باعتبار المحفوظ لا المفقود، أما إذا نظرنا إلى ما كتب وفُقِد و لم يصل إلينا ، فإن أول مؤلَّف في المعاني هو ما سبق بيانه : (غريب القرآن) لأبان بن تغلب (–141هـ)، وقيل العنوان هو(معاني القرآن)، في عصر أتباع التابعين. ومعلوم أن النحو سابق من حيث التأليف اللغة، وأول مَن ألف في

المكنون) لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي(– 756هـ)، و(مشكَل إعراب القرآن) لمكي بن أبي طالب(–437هـ).. قال السيوطي:"ومن فوائد هذا النوع معرفة المعنى، لأن الإعراب يميِّز المعاني، ويوقِفُ على أغراض المتكلمين"[1].

- كتب عرفت بكتب إعراب القرآن وهي كثيرة، ومنها[2]:

1 -(إعراب القرآن) للزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السَّرِيِّ بن سهل (–311هـ) [3].

2 -(إعراب القرآن) للنحاس أبي جعفر محمد بن أحمد (–338هـ).

3 -(إعراب ثلاثين سورة من القرآن) لابن خالويه الحسين بن أحمد، النحوي (–370هـ).

4 -(التبيان في إعراب القرآن المجيد) للعكبري أبي البقاء عبد الله بن الحسين(–616هـ).

5 -(المجيد غي إعراب القرآن المجيد) للسفاقسي إبراهيم بن محمد(–742هـ).

ت القسم المتعلق بالبلاغة والأساليب البيانية:

والمقصود في هذا الموضع ما تعلق بالجانب الفني الجمالي في القرآن الكريم، وهو جانب جاء بحثه متأخرا عن القسمين السابقين، وقد تمثل هذا البحث في حقلي البلاغة والإعجاز القرآنيين، فكان اهتمام البلاغة ببحث فنون التعبير المختلفة في القرآن، والمعاني التي تجري وراء النظم القرآني ، وصلة هذا النظم بها..وهو بحث كان له غاية الأثر في توجيه الدراسات البلاغية والبيانية على ضوء ما توصل إليه العلماء في أسلوب القرآن[4].

والقرآن كتاب عربي نزل بلسان العرب ومعهود كلامهم وأساليبهم في تصاريف القول، ومع ذلك تفرّد وتميزّ إلى حدِّ الإعجاز، فكان بذلك المثل الأعلى في البيان العربي، عند أهل البلاغة والأدب، "ومن هنا نشأت دراسات البيان القرآني التي تفرعت منها دراسات الإعجاز من بعد. وقد حاولت هذه الدراسات أن تصل إلى رأي في كنه الإعجاز القرآني،

النحو أبو الأسود الدؤلي(–96هـ)، في عصر التابعين. كما أن البصريين سابقون في التأليف العام في العِلمين وفي القرآن. ينظر: التفسير اللغوي: ص 256-257

[1] الإتقان في علوم القرآن: ص 1219–1220.

[2] ينظر: لمحات في علوم القرآن: ص238–239.

[3] وعَنْون البعضُ لهذا الكتاب بـ (معاني القرآن) أو(معاني القرآن وإعرابه)، وهو كلّه محتمل ، لأن صاحبه قال في مقدمته:" هذا كتاب مختصر في إعراب القرآن ومعانيه). ينظر: التفسير اللغوي: ص259–260.

[4] ينظر: لمحات في علوم القرآن: ص241، و أثر القرآن في تطور الدراسات النقدية حتى آخر القرن الرابع الهجري، ص37.

والسرِّ في بديع نظمه وعجيب رصفه، وبدأت محاولات شتى في القرن الثالث، انتهت بقيام علم مستقل بها، في القرن الرابع، هو (علم إعجاز القرآن)، ثم تطورت دراساتُ البلاغة وانفصالُها وتأثرُّها بدراسات الإعجاز عامة" [1].

وقد كان المعتزلة السباقين إلى بدء البحث في الدراسات البيانية للقرآن، ببحث أسلوبه ونظمه، في القرن الثالث الهجري، فألَّف الجاحظ (– 255هـ) كتابه (نظم القرآن) الذي أثبت فيه آراءه في بيان القرآن بشكل يوضح الحجة في إعجازه، والكتاب وإن كان مفقودا لم يصل إلينا إلا أن كثيرا من السابقين يشير إليه [2].. ليأتي ابن قتيبة من أهل السنة من بعده، فيكتب (تأويل مشكل القرآن) الذي أبان فيه عن تمكنه من فنون القول، ودرايته بعلوم القرآن والحديث واللغة والنحو والأدب شعره ونثره، وإفادته منها في توجيه كتاباته وآرائه في الأدب وبيان القرآن[3].

ثم كان عبد القاهر الجرجاني(– 471هـ) من أهل السنة في كتابه (دلائل الإعجاز) أول من استطاع أن يبرز الجانب البياني في القرآن الكريم من خلال موازناته التي يعقدها بين الكلام والكلام، وبين الكلام ونظم القرآن، ليكون بذلك الأقرب إلى اكتشاف سر الجمال الفني وخصائصه. قال سيد قطب: "لولا أن قصة المعاني والألفاظ ظلت تخايل له من أول الكتاب إلى آخره، فصرفته عن كثير مما كان وشيكا أن يصل إليه، ولكنه على الرغم من ذلك كله كان أنفذ حسًّا من كل من كتبوا في هذا الباب على وجه العموم، حتى في العصر الحديث !" [4]. وقال أيضا عنه في هذا المعنى: " رحم الله (عبد القاهر) لقد كان النبع منه على ضربة معول فلم يضربها"[5].

هذه هي البوادر الأولى لهذا الاتجاه في قسم البلاغة والبيان من خلال كتب البلاغة والإعجاز، أما ما تعلق بكتب التفسير فلعلَّ أول مؤلَّف أفاد من تلك الكتب التي سبقته بالحديث عن النظم القرآني وإعجازه البياني هو كتاب (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) للزمخشري أبي القاسم جار الله محمود بن عمر(–538هـ) المعتزلي، والذي كان بحق خير من جسّد فكرة النظم في القرآن التي أسس لها عبد القاهر الجرجاني، فأبان عن قدرة عجيبة في مناطقة أسلوب القرآن، واستحضار المتلقين للخطاب القرآني، مبرِزا الفروق بين الأسلوب

---

[1] أثر القرآن في تطور الدراسات النقدية حتى آخر القرن الرابع الهجري، ص37–38.

[2] ينظر ما قيل حول الكتاب ورؤية الجاحظ في نظم القرآن في: المرجع نفسه: ص72–100.

[3] ينظر ما جاء في الكتاب وكيفية معالجته أسلوب القرآن في: المرجع نفسه: 101–150.

[4] التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط 16/2002،ص31. وفي ص34 من المرجع نفسه، بيَّن كيف أن الحديث عن الخصائص الفنية لم يتجاوز في مرحلته الأولى النصوص المفردة دون الوصول إلى الخصائص العامة، لتكون بعد ذلك مرحلة النظر في الآثار الفنية، وإدراك مواضع الجمال المتفرقة، وتعليل كل موضع منها تعليلا منفردا. أما المرحلة الثالثة وهي مرحلة إدراك الخصائص العامة فلم يصلوا إليها أبدا لا في الأدب ولا في القرآن، وبقي بذلك أهم مزايا القرآن مغفلا خاليا. ونقل المعنيين د.محمد الصباغ في: لمحات في علوم القرآن، ص242،243.

[5] التصوير الفني في القرآن: ص33.

والأسلوب الممكن، ومتوقِّفا عند المزية في الكلام بذلك الوجه الذي نطق به القرآن، وقد أعانه على تميزه وتفرده في استجلاء مزايا الأسلوب القرآني، والوقوف عند جانبه الجمالي، براعتُه في علوم اللغة والنحو والبلاغة وحفظه للشعر.. الأمر الذي جعل الكلَّ يشهد له بالعبقرية في هذا المجال، بما فيهم خصومه من المذاهب الأخرى، وما زال (الكشاف) إلى اليوم مرجعا لكل طالب للفنية والأدبية والجمال في التعبير القرآني[1].

كما يبقى كتاب (في ظلال القرآن) لسيد قطب، من أهم التفاسير المعاصرة التي اهتمت بالجانب الأدبي الفني في القرآن، تمثل فيه نظريته في التصوير القرآني، والتي خصها بالتأليف في كتاب(التصوير الفني في القرآن)[2].

3 -**مصادر التفسير اللغوي:**

- إذا عُلِم أن هذا الاتجاه في التفسير إنما هو لون من ألوان التفسير العام، فإنه لا يكاد يخلو منه تفسير من التفاسير، بالمأثور أو بالرأي المحمود، ذلك أنهم يشتركون في اعتبار اللغة أصلا من أصول التفسير، وإن تفاوتت درجات تركيزهم على هذا الاتجاه وطريقتهم في عرضه، ونسبة اعتمادهم إياه قلة وكثرة، ومدى استفادة كل مفسِّر من لغة العرب في بيان معاني القرآن، ولذلك تعتبر كتب التفسير مصدرا من مصادر التفسير اللغوي للقرآن، كـ(جامع البيان عن تأويل القرآن) للطبري(– 310هـ) العمدة في التفسير بالمأثور، و(الجامع لعلم القرآن) للرماني أبي الحسن علي بن عيسى اللغوي النحوي المعتزلي (– 384هـ) [3]، وقد غلب على تفسيره الطابعُ اللغوي والنحوي، و(المحرر الوجيز) لابن عطية (– 542هـ)، و(الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) للزمخشري(–538هـ) [4]. وقد يختلف أهل التفسير بالمأثور عن أهل التفسير بالرأي، في أخذهم باللغة كسبيل للتفسير ، في أنهم لا يخرجون في هذا الأخذ عن أقوال السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم[5].

---

[1] ينظر المزيد عن (الكشاف)، وتجليات الأدبية فيه، وما وجِّه إليه من انتقادات في: لمحات في علوم القرآن: ص242–250.

[2] سيفرد (التفسير البياني والأدبي) بدرس خاص، هو اللاحق إن شاء الله.

[3] وتفسيره غير متوفر ، اللهم إلا جزء ا في تفسير سورة آل عمران بدءا بالآية 98 إلى آخرها. هكذا ذكر د.مساعد الطيار في التفسير اللغوي: ص206، غير أنه في الصفحتين(207)و(208) يمثل بآيتين من هذا التفسير هما: 91–92 من سورة آل عمران. فلم يتضح بذلك بأية آية يبتدئ التفسير في الجزء الذي تحدث عنه.

[4] الزمخشري معتزلي قد ضمّن كشّافه مذهبه، ما جعله من التفسير بالرأي المذموم، كما عرفت من قبل، وكذلك فعل الرماني قبله. ومع ذلك فإن الباحث قد يرجع إليه، ويأخذ منه ما يحتاج إليه في بحثه، لكن محتاطا لدينه، حذرا من اعتزالياته ! وقد صنف البعض على حاشية (الكشاف) بيان اعتزالياته ليحذرها القارئ.

[5] نقل د.مساعد الطيار نصا للطبري يبين فيه هذا الضابط في التعامل مع اللغة. ينظر: التفسير اللغوي: ص 186. كما عالج تجليات الأخذ بالاتجاه اللغوي في التفاسير المذكورة من غير (الكشاف). يراجع: المصدر نفسه: ص185–254.

- وأما المصدر الثاني فهو كتب(معاني القرآن)، وقد سبق لك معرفة المراد بالمصطلح، كما سبق أن تعرفت على بعض هذه الكتب، من مثل: (معاني القرآن) للفراء (– 270هـ)، و(معاني القرآن) للأخفش الأوسط(–205هـ)، و(معاني القرآن وإعرابه) للزجاج (–311هـ)، و(معاني القرآن) للنحاس (–338هـ)..
- وأما الثالث فكتبُ الغريب (غريب القرآن)، وقد ذكر طائفة منها قبل، ومن أبرزها (مجاز القرآن) لأبي عبيدة(–210هـ)، و(غريب القرآن) للسجستاني (–330هـ)، و(غريب القرآن) لابن قتيبة(–276هـ)..
- وأما الرابع فكتب (معاجم اللغة) من مثل: كتاب (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي(– 175هـ)، وكتاب (جمهرة اللغة) لابن دريد، أبي بكر محمد بن الحسن(–321هـ)، و(تهذيب اللغة) للأزهري، أبي منصور محمد بن أحمد(–370هـ).. [1]
- وأما الخامس فكتبٌ أخرى قد يفاد منها في التفسير اللغوي للقرآن من مثل[2]:
  - كتب(غريب الحديث) ومنها (غريب الحديث) لأبي عبيد القاسم بن سلام(–224هـ)، و(غريب الحديث) لابن قتيبة(– 276هـ)، و(غريب الحديث) لإبراهيم بن إسحاق الحربي(– 285هـ)، و(غريب الحديث) للخطابي أبي سليمان حمد بن محمد(– 388هـ)، و(الفائق في غريب الحديث) للزمخشري(– 538هـ)، و(النهاية في غريب الحديث والأثر) لابن الأثير أبي السعادات المبارك بن محمد(–606هـ)..
  - كتب (الاحتجاج للقراءات) والتي تعنى بتخريج القراءات القرآنية، وبيان وجهها في كلام العرب. وممَّن ألّف في ذلك: الأزهري أبو منصور(– 371هـ) في (القراءات وعلل النحويين)، وابن خالويه أبو عبد الله الحسين بن أحمد(–370هـ) في(إعراب القراءات السبع وعللها)،والفارسي أبي علي(– 377هـ) في (الحجة للقراءات السبع)، وابن جني (–392هـ) في (المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها)..
  - شروح دواوين الشعر.
  - كتب الأدب من مثل (البيان والتبيين) للجاحظ(– 255هـ)، و(الكامل في اللغة والأدب) لأبي العباس المبرد(–285هـ)، ومجالس ثعلب(– 281هـ)، و(الزاهر في معاني كلمات الناس) لابن الأنباري (–358هـ)، وأمالي أبي علي القالِّي(–356هـ) وغيرها..

[1] تراجع مناهج التأليف في هذه الكتب وكيفية إفادة الاتجاه اللغوي منها في: التفسير اللغوي للقرآن، ص387–430.

[2] ينظر هذا المصدر في: التفسير اللغوي للقرآن: ص431–450.

4 -**نقده:**

إن أهم ما ينتقد به هذا الاتجاه، وسواء تعلق الأمر بالتفسير بالمأثور أو بالتفسير بالرأي، هو خوضه في موضوعات لغوية ونحوية وصرفية بما يزيد عن قدر الحاجة، وكثرة المناقشات والردود في ذلك، بما يفقد التفسير روحه وجوهره، إضافة إلى غياب البحث الفني الجمالي المنسجم، الناظر إلى الخطاب القرآني في إطار الوحدة الموضوعية المتكاملة في خصائصها الفنية والجمالية، الهادفة إلى الوقوف على معاني القرآن وإدراك إعجازه في آن واحد.. فالقرآن الكريم كتاب هداية قبل كل شيء، والنفس الإنسانية بطبعها ميالة إلى كل ما هو جميل أخاذ، ولا يحقق لها الاستجابة لهذا الميل غير الشق الأدبي في القرآن، والذي لا يجب أن يغفله المفسر..يقول سيد قطب في إبراز هذا المعنى: "إن في هذا القرآن سرًّا خاصا يشعُرُ به كلُّ مَن يواجِهُ نصوصَه ابتداء، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئا ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصرا ما ينسكب في الحسِّ بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحا ، ويدركه بعض الناس غامضا، ولكنه على كل حال موجود. هذا العنصر الذي ينسكب في الحس، يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود؟!"[1].

وهذا الجانب(الأدبي البياني) وإن كان جزءا من الاتجاه اللغوي في التفسير كما عرفت، إلا أن أغلب مَن فسَّر القرآن وفق هذا الاتجاه لم يعره اهتماما، لانشغاله باللغة والنحو والصرف وغيرها من المباحث، وأما مَن حاول الاهتمام به، فإن أغلب الجهد فيه كان معتمدا الجزئية في التناول، بعيدا عن النظرة العامة المتكاملة في استجلاء خصائص النص القرآني الأدبية والفنية، التي توصل إلى جوهر وروح الإعجاز، الذي ذلت له رقاب المعاندين من كفار قريش أول الأمر، وانحنت له هاماتهم، بعجزهم عن الإتيان بمثله، فآمن من آمن وكابر من كابر [2].. اللهم إلا ما كان من الزمخشري في (الكشاف)، وبعض من سار على نهجه من بعده من الأقدمين، مع ما بينهم من الاختلاف، وما كان من بعض المحدثين والمعاصرين في سعي لجبر النقص بإبراز الجانب البياني والفني في القرآن..[3]

[1] في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بيروت–القاهرة، ط12/1986، ج6/3399.

[2] ينظر: لمحات في علوم القرآن: ص241–243.

[3] في الدرس اللاحق(الاتجاه البياني الأدبي في التفسير) حديث عن هذه الجهود.

الدرس الثاني عشر

مناهج التفسيـــــــــــــــر ونقدها

رابعا: التفسير البياني والأدبي

1 -مفهومه:

هو التفسير الذي يبحث في جمالية التعبير القرآني نظما وتصويرا ، من خلال الوقوف على الألفاظ والتراكيب والأساليب، وما فيها من أسرار ، مع اعتماد منهج المقارنة بين المفردة والمفردة، والتركيب والآخر في المواضع المختلفة من القرآن، وربطها بسياقاتها التي وردت فيها والمناسبات التي تجمعها.. فهو يعنى "بالبحث عن الجمال الفني في القرآن وتناسقه وانسجامه مع الجمال الموضوعي البالغ حدَّ الكمال "[1]. فالهدف إذن من هذا الضرب من التفسير هو الكشف عن وجوه الجمال والإعجاز في الأسلوب القرآني من خلال اللغة العربية.

2 -أعلامه:

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين على أمة كانت تقيم للشعر وزنا وللبلاغة مكانة، فبهرها بعجيب أسلوبه وبديع نظمه، "ذلك أنه في كل شأن يتناوله يختار له أشرف المواد، وأمسَّها رحما بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحقُّ بها وهي أحق به: بحيث لا يجد معنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين وقراره المكين. لا يوماً أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلا، ولا الساكن يبغي عن منزله حِوَلا.. وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان"[2].

وهذا البيان الذي جاء به القرآن جمع الأمور التي يجمعها الكلام، لكنه جمعٌ في أرقى المراتب وأعلى الصور وأحسنها، يقول الخطابي: "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأمَّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشدَّ تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه. وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها. وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع

[1] لمحات في علوم القرآن ومناهجه: ص 241.

[2] النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن: د. محمد عبد الله دراز،دار القلم، الكويت،(د/ط-ت)، ص92.

الكلام، فأمَّا أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا"[1].

ولإبراز هذا الجانب المعجز لكتاب الله اتَّجَه جملةٌ من المفسرين والدارسين الأوائل للقرآن لبحث الوجوه البيانية للنص القرآني، وأَوْلَوْها عنايتهم، فكانت أُولى الإشارات في عصر التدوين، لعلّ أَوَّلها كتاب(مجاز القرآن) لأبي عبيدة (–210هـ)، وكتاب (معاني القرآن) للفراء (– 207هـ)، و(نظم القرآن) الذي لم يصل إلينا منه شيء للجاحظ (– 255هـ)، و(تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة (–276هـ)، و(تلخيص البيان في مجاز القرآن) للشريف الرضي(–406هـ)..

ثم كانت مرحلة أخرى تجلَّت فيها معالمُ المنهج البياني في الدرس التفسيري أسَّس لها عبد القاهر الجرجاني (–471هـ) من خلال نظرية النظم في كتابه (دلائل الإعجاز)، وهو وإن لم يكثر فيه من الشاهد القرآني إلا أنه بيّن وجه الإعجاز في القرآن [2]، والذي لم يَرَهُ في غير النظم والبيان، فكان ما كتبه عن النظم أرضية انطلق منها مَن بعده في تجلية هذا الوجه وإبراز البيان القرآني لفظا وتركيبا وأسلوبا..وكان أكثرَ من أفاد من هذه النظرية بعده، وامتثل النهج البياني في شقِّه التطبيقي والإجرائي الزمخشريُّ أبو القاسم محمود بن عمر(– 538هـ) في مصنَّفِه (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، والبقاعي برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر(– 885هـ) في كتابه(نظم الدُّرَر في تناسب الآيات والسُّور)، والسيوطي جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمان بن أبي بكر(– 911هـ) في كتابه (تناسق الدُّرر في تناسب السُّور)، والألوسي شهاب الدين أبو الفضل السيد محمود (–1270هـ) في تفسيره (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)..

ومع هذا التوسع في البحث البياني للأسلوب القرآني من قبل هؤلاء الأعلام وغيرهم الذين تُعَدُّ مؤلفاتُهم مرجعًا لهذا الاتجاه التفسيري لا يمكن الاستغناء عنه حتى اليوم، إلا أنهم لم يُؤَصِّلوا من الجهة التنظيرية لهذا الاتجاه ولم يكتبوا في أسسه وقواعده، ما جعل البعض من المعاصرين يسعى في هذا الاتجاه في محاولة لضبط هذه القواعد والمعالم، غير أنهم اختلفوا في ذلك ولم يتفقوا على منهجية واحدة ذات خطوات محدّدة، وإن اتفقوا على الأرضية المنطلق منها والهدف الذي يصبون إليه [3].. وكان من هؤلاء أمين الخولي (–1966م) الذي اقترح جملة من الخطوات تمثلت في[4]:

---

[1] الخطابي أبو سليمان حمد بن إبراهيم: القول في بيان إعجاز القرآن–ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز– ص: 27.

[2] ينسب للجرجاني تفسير بعنوان (درج الدرر في تفسير القرآن العظيم) من جزأين حققه د.طلعت صلاح الفرحان، ود.محمد أديب شكور.

[3] يذكر أن الاتجاه الأدبي وإن لم يعتمد كمنهج في التفسير إلا أنه كان موجودا قبل محاولات التنظير له، كما هي الحال عند الشيخ الإمام محمد عبدهو تلاميذه رشيد رضا ومحمد مصطفى المراغي وعبد القادر المغربي وإبراهيم الجبالي..ينظر:خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، د. محمد رجب البيومي، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية، السنة الثالثة، العدد الثاني والأربعون، ص285 وما بعدها.

[4] ينظر:أمين الخولي، التفسير معالم حياته، منهجه اليوم،ص35– 44، نقلا عن: بحوث في أصول التفسير ومناهجه: فهد عبد الرحمان بن سليمان الرومي، مكتبة التوبة، الرياض، السعودية، ط1419/4هـ، ص107–109.

1 -ان يجمع المفسر الآيات ذات الموضوع الواحد بعضها إلى بعض ويتدبرها جميعا ويفسرها كذلك.

2 -أن يرتب آيات الموضوع الواحد ترتيبا زمنيا حسب تاريخ نزولها.

3 -أن يدرس ما حول النص كتاريخه وأسباب نزوله وكتابته وقراءته ونحو ذلك من علوم القرآن.

4 -أن يقدم دراسة عامة للبيئة التي نزل فيها النص، البيئة المادية كالأرض والجبال.. والبيئة المعنوية كالعادات والتقاليد والنظم والأعراف..

5 -أن يدرس النص القرآني في مفرداته دراسة لغوية، وبيان استعمال القرآن الكريم لها في المواضع المختلفة.

6 -أن يدرس النص القرآني في معانيه المركبة بطريق النحو والبلاغة.

وهذا الذي طرحه الخولي يكاد يكون عينه التفسير الموضوعي للقرآن بريشة أدبية بيانية[1]، لكنه لم يستطع هو نفسه أن يسير وفق هذا المنهج الذي طرحه وتبقى محاولته جزئية فيصرح بذلك قائلا: "وأولى أن نؤثر هذه الحقيقة على أن نكذب على أنفسنا وعلى الأجيال فنزعم الكفاية الكاملة والقدرة الموفورة، ولئن لم يكن لنا من الكمال إلا الشعور بالنقص، فذلك أجمل بنا من التزيد الزائف"[2].

وسارت عائشة عبد الرحمان (بنت الشاطئ) على درب زوجها وأستاذها أمين الخولي، معتمدة التناول الموضوعي للنص القرآني، وجمع ما حوله من ملابسات كأسباب النزول والقراءات القرآنية وغيرها، وفهم دلالات الألفاظ والتراكيب في سياقاتها، إضافة إلى الاجتهاد في فهم أسرار التعبير القرآني.. وكتبت وفق هذه الرؤية تفسيرها (التفسير البياني للقرآن الكريم) في جزئين، تناولت في كل منهما سبع سور من قصار ووساط المفصل[3]..

وممن سلك منهج التفسير الأدبي للقرآن سيد قطب (– 1966م) صاحب نظرية (التصوير الفني) التي شرحها وبيَّن أسسها في كتابه (التصوير الفني في القرآن) والتي رآها تمامَ نظريةِ النظم للجرجاني، وأجراها في تفسيره (في ظلال القرآن) وفي كتابه (مشاهد يوم القيامة)..فكانت الريشة التصويرية لسيد قطب أبلغ وأحسن ريشة إلى اليوم تمكَّنت من تجسيد المعاني القرآنية صورا ومشاهد تنبض فيها الحياة فتتأثر بها النفوس والأرواح..

[1] ومما كتب وفق هذا الطرح سلسلة كتب بلغت اثني عشر كتابا تحت عنوان (من هدي القرآن)، كان منها: (القادة والرسل)، (في رمضان)، (السلام والإسلام)، (القسم القرآني)، (القرآن والحياة)..وانظر البقية في المصدر نفسه: ص209–210.

[2] التفسير معالم حياته، منهجه اليوم: ص 46–47، نقلا عن المصدر نفسه: ص109.

[3] وكتبت أيضا: مقال في الإنسان–دراسة قرآنية–، والشخصية الإسلامية–دراسة قرآنية– والقرآن وقضايا الإنسان.

وببراعة لافتة وأسلوب أخّاذ كان وقوف ابن عاشور محمد الطاهر(– 1973م) عند الجانب البلاغي والأدبي للنص القرآني في تفسيره (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)المعروف بـ(التحرير والتنوير)..والرؤية الأدبية في التحليل كانت أيضا منهج محمد المبارك (–1981م) في كتابه (من منهل الأدب الخالد)..

ومن الدراسات المطولة المهمة في هذا الباب ما كتبه محمد عبد الخالق عضيمة بعنوان (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) في أحد عشر مجلدا ضخما، والذي استغرق منه مدة ثلاث وثلاثين سنة، وقد قسّمه أقساما ثلاثة، خصّ الأول بدراسة النحو في القرآن في الأجزاء الثلاثة الأولى، وجعل الثاني لدراسة الصرف في القرآن في الأجزاء الأربعة التالية، وأمّا القسم الثالث وهو في الأجزاء الأربعة الأخيرة فكان لأساليب البيان والبلاغة في القرآن[1].

كما أنجز عبد الفتاح لاشين دراستين في الباب، الأولى عن علوم البلاغة في ضوء أساليب القرآن، وجعلها ثلاثة كتب: المعاني على ضوء أساليب القرآن – البيان على ضوء أساليب القرآن– البديع على ضوء أساليب القرآن. وأما الدراسة الثانية فكانت بعنوان (من أسرار التعبير القرآني)[2].

ويبقى فاضل صالح السامرائي بكتاباته ودروسه ومحاضراته الكثيرة خير من امتثل هذا المنهج في تفسير القرآن الكريم وبيان أوجه بلاغته وإعجازه التي بهرت العرب وقد تحدّاهم القرآن بها.. ومن أهمِّ ما أَلَّف في ذلك تفسيره (على طريق التفسير البياني)، وكتابه (من أسرار التعبير القرآني)، و(بلاغة الكلمة في التعبير القرآني)، و(التعبير القرآني)، و(لمسات بيانية في نصوص التنزيل)، و(أسئلة بيانية في القرآن)..

ولعلّه ومن خلال ما كتب السامرائي يمكن إدراك أن هذا اللون من التفسير هو قسم من أقسام التفسير اللغوي المندرج تحت باب التفسير العام الذي يقبل الاجتهاد والرأي المحمود، لما يعتمد من إعمال للسان في الفهم والبيان والوقوف على أسرار القرآن.. فهو ينطلق من اللغة وفنونها المختلفة، دون إغفال للمقامات والسياقات والأسباب والقراءات، مُعْمِلًا النظر في الاختيارات والعدولات، ومُقِيمًا المقارنات والموازنات، بين المفردة والمفردة، وبين التركيب والتركيب، وبين الأسلوب والأسلوب، في مختلف السور والآيات، ليستجلي المزايا والمناسبات في تلك الاختيارات التي كانت بها التنزلات.. ولذلك فإنه بقدر ما يمتلك المفسر وفق هذا المنهج من علم باللغة العربية وأسرارها واستعمالات العرب لها في أساليب كلامها، وإحاطة بملابسات النصوص وسياقاتها، وبقدر إخلاصه وتقواه لله تعالى، تكون الفيوضات والفتوحات، ويكون التوفيق في بلوغ الأسرار والمكنونات، فالأقرب إلى الله أقرب إلى فهم مراده من كلامه !.

[1] ينظر: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني: صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار، عمان،الأردن، ط2000/1، ص99–100

[2] ينظر:المرجع نفسه: ص100.

3 – **نقده:**

يُعَدُّ هذا اللونُ من التفسير أكثرَ ألوان التفسير اعتناءً بالجانب النظمي والإعجازي للقرآن الكريم، وهزًّا للذوق وتنشيطًا للأدبية في فهم أسلوبه، ولذلك فإن أثره في تربية الملكة الأدبية لدى القارئ لا يخفى على ناظر ! وهو وإن أفاد من التفسيرين العامّ والموضوعي، واستند إلى الرواية ووظف الدراية، إلا أنه يبقى من حيث الجملة تفسيرا متخصِّصًا، لا يُقبِل عليه ولا يفهمه إلا من كان على قدر من العلم باللغة العربية وفنونها، لأنه يهتم بإعجاز القرآن البياني، فهو يستجلي المزية في الكلام ويعالج أرقى مستويات البلاغة في الخطاب، ومن ثم فهو لا يتأتى لأيٍّ كان وإن كان عربي اللسان!..

الدرس الثالث عشر

الإعجـــــــــــــــاز القرآني

أولا: مفهوم الإعجاز ووجوهه

1 -مفهوم الإعجاز:

الإعجاز: إثبات العجز، والعجز: ضد القدرة، فهو اسم للقصور عن فعل الشيء. فإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المُعجِز. والمعنى **المراد بالإعجاز** هنا: إظهار صدق النبيِّ–صلى الله عليه وسلم– في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة–وهي القرآن– وعجز الأجيال بعدهم[1].

وأما **المعجزة**: فهي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة يجريه الله –تعالى– على يدي نبيٍّ من أنبيائه لإثبات نبوته و صدق رسالته[2].

والاتفاق حاصل على أن القرآن الكريم معجزٌ، وأنّه معجزةُ النبيِّ–صلى الله عليه وسلم – الخالدة، بدليل قوله–عليه السلام– في الحديث الذي يرويه البخاريُّ عن أبي هريرةَ–رضي الله عنه–: "مَا مِنَ الأنبياءِ نبيٌّ إلاَّ أُعْطِيَ ما مِثْلُهُ آمَنَ عليهِ البشرُ، وإنَّما كانَ الذي أُوتِيتُ وَحيًا أَوْحاهُ اللهُ إلَيَّ ، فأرجُو أنْ أكُونَ أكثَرَهم تابِعًا يوم القيامةِ".

وموضوع الإعجاز لم يكن مطروقا زمنه –عليه السلام– أو زمن صحابته– رضي الله عنهم– والتابعين، وإنما كانت إثارة بحثه بدءًا من القرن الثالث الهجري، وقد قيل إن أول من بحثه هو الجاحظ (–255هـ) في كتابه (نظم القرآن)[3].

2 -مراحل التحدي بالقرآن[4]:

---

[1] ينظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص258–259

[2] سبق الحديث في الدروس الأولى الحديث عن المعجزة وشروطها.

[3] وهو كتاب لم يصل إلينا، لكنه أشار إليه في كتاب (الحيوان) إذ قال: "ولي كتاب جمعت فيه آياً من القرآن لتعرف بها ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها عرفت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة..". نقلا عن: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص313. كما ذكر الكتاب حاجي خليفة في كشف الظنون(1964/2)، والبغدادي في هدية العارفين (803/1)، والباقلاني في(إجاز القرآن:ص248،6) وهذه الإحالات الثلاث الأخيرة نقلا عن: أبحاث في علوم القرآن، غانم قدوري الحمد، ص244.

[4] ينظر: مباحث في إعجاز القرآن، د.مصطفى مسلم ، دار المسلم، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1996/3، ص34–38، اللآلئ الحسان في علوم القرآن، د.موسى شاهين لاشين: دار الشروق، القاهرة، ط2002/1، ص207–210.ص208، والواضح في علوم القرآن: ص151–154.و أبحاث في علوم القرآن:ص241–242.

بعد أن نزل القرآن أول الأمر، وصدع النبي-صلى الله عليه وسلم- بدعوته وأعلنها في قريش، طالبوه بآية أو دليل على أن الذي جاء به هو وحي من ربه، فكان جوابه: يكفيكم القرآن آية ودليلا على صدقي ! لأنه لا يتأتى لأحد أن يفتريه على الله، قال-تعالى-: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٠ – ٥١]، وقال – تعالى-:﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس: ٣٧]، وبيَّن لهم أنهم يدركون عجزهم عن أن يأتوا بمثل القرآن، كما يدركون عجز محمد-صلى الله عليه وسلم- عن ذلك، وهو المعروف بينهم بأميته وعدم تلقيه العلم والقراءة والكتابة عن أحد.. فإذا كانوا وهم أرباب الفصاحة وأساطين البيان وفرسان القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال وغيرها من أفانين القول.. إذا كانوا يعجزون عن أن يأتوا بمثل القرآن فكيف يتَّهمون محمَّدا الأميّ بتقوُّله وافترائه إيَّاه من عند نفسه؟ !قال -تعالى-:﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس: ١٥ – ١٦]، وقال-سبحانه-:﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: ٣٣ – ٣٤]، فلما تحدّاهم إلى مثله ولم يستطيعوا عاندوا وكابروا وقالوا عند سماع القرآن يقرع آذانهم بقدرتهم على أن يقولوا مثله، قال –تعالى-:﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال: ٣١]. لكن القرآن الكريم لاحقهم بالتحدي والتقريع، وإلهاب مشاعرهم بأعنف الكلمات، وتسجيل كذبهم وافترائهم في مزاعمهم وعجزهم المطلق عن مجاراة القرآن ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[الإسراء: ٨٨].

وعندما ضاقت بهم الحيلة ولم يجدوا سبيلا إلى معارضته راحوا يطرقون كل باب من شأنه التشكيك في صدق ربانية مصدر القرآن﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٥]، كما نسبوا ما يقوله-عليه السلام- إلى رجل يعلِّمه إيَّاه، ليس من قريش، هي لا تعلمه﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: ١٠٣]..

ولم يكتف القرآن في إثارتهم وتسجيل العجز عليهم مجتمعين، بل أثارهم وأخزاهم فُرَادى، كما هي حال الأشقياء الثلاثة: الوليد بن المغيرة وأبو جهل عمرو بن هشام وأبو لهب عمُّ الرسول –صلى الله عليه وسلم-، فقال في حق الأول: ﴿

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المدثر: ١١ – ٢٦]. وقال في الثاني: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ [العلق: ٩ – ١٨]. وقال في شأن الثالث: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾[المسد: ١]..وقد كان حريا بهؤلاء أن يبذلوا وسعهم ويستجمعوا قواهم فيفرغونها في الرّدّ على القرآن بعد هذا الخزي الذي ألحقه بهم، لكنهم لم يفعلوا..بل كان بوسع أحدهم كأبي لهب مثلا أن يقول: قرآنك يا محمد يتوعدني بالنار، وإني أُعلِن إسلامي، فيُكذِّبَ بذلك القرآن ! لكنه لم يفعل ..وما ذلك إلا لأن الله تعالى العليم الخبير هو من أنزل القرآن، وهو أعلم بالمهتدين..

ثم تنازل لهم القرآن فتحداهم بأن يأتوا بشيء مثل القرآن في أي موضوع كان، ولو كان كذبا وافتراء، قال -تعالى-:﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [ه ود: ١٣ – ١٤]. ثم اكتفى بعد ذلك في تحدِّيهم بسورة مثله، كيفما كانت طويلة أو قصيرة أو بين بين، فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس: ٣٨ – ٣٩].

وحتى لا يقال إن محمدا –صلى الله عليه وسلم– تحدَّى أهل مكة وهم قوم أمِيُّون لا دراية لهم بعلوم الأديان والأنبياء والكتب، ولو أنه تحدَّى أهل الكتاب وأهل الحضارات والعلوم لوجد من يعارضه ويأتي بمثل القرآن ! فكان التحدي في المرحلة المدنية مُفحِما وحاسما بتسجيل العجز المطلق لأهل المدينة–وكان فيها أهل الكتاب– ولغيرهم ممن بعدهم إلى يوم الدين، قال –سبحانه–:﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣ – ٢٤] ، ليبقى التحدي للعالمين بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن..[1]

[1] هذه المرحلية مبنية على القول بالتدرج في التحدي، وإلا فثمة من لا يقول بهذه المرحلية وهذا التدرج. راجع: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، عبد الفتاح الخالدي، ص60–62.

3 -**القدر المعجز من القرآن**[1]:

اختلف في القدر المعجز من القرآن على أقوال:

أ – يذهب جمهور العلماء إلى أن الإعجاز متعلق بسورة تامة من القرآن ولو كانت قصيرة، لأن التحدي في آخر مراحله وقع بسورة واحدة من مثل القرآن، وقد جاء لفظ(سورة) نكرة فيشمل الكثير والقليل. وبناء على أن أقصر سورة فيها ثلاث آيات، زاد بعضهم: أن ما كان بقدرها وإن قلّ عن الثلاث يقع به التحدي.

ب -وذهب المعتزلة إلى أن الإعجاز متعلق بالقرآن جميعه لا ببعضه أو بكل سورة برأسها، وهو قول تعترضه آيات التحدي بالسور العشر وبالسورة الواحدة.

ت -وذهب البعض إلى ان القرآن معجز بالقليل والكثير منه دون تقييد بسورة لقوله –تعالى-:﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: ٣٤]، على أنَّ (الحديثَ) كلُّ كلام دلّ على معنى مفيدٍ، كان الدال آية او أكثر أو أقلّ.

4 -**الاختلاف في وجوه الإعجاز**:

اختلف العلماء منذ بدء البحث في فكرة الإعجاز حول الوجه فيه، ولقد كان لنشأة علم الكلام أثر كبير في ذلك، إذ بدأ الاختلاف حول القول بخلق القرآن، لتختلف الآراء وتتضارب بعد ذلك في وجوه إعجازه التي أوصلها بعضهم إلى أربعة عشر وجهًا، نذكر أهمَّها:

ذهب قوم على رأسهم أبو إسحاق إبراهيم بن سيَّار النَّظَّام المعتزلي (– 224هـ) وابن المرتضى أحمد بن يحي(– 840هـ) المعتزلي الشيعي اليمني إلى القول بالصَّرْفَة، ومعناها عند النظّام : أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصَّرف خارقا للعادة[2]. أما عند ابن المرتضى فهي تعني: أن الله سلبهم العلوم التي يحتاجون إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن. وهذا القول لا شك في بطلانه، وقد كان أتباعها وأصحابها من المعتزلة أول من ردّه عليهم قبل غيرهم من المخالفين. لأن كل ذي عقل يمكن أن يعترض عليهم بالقول: إذا كان الله سلبهم القدرة أو العلوم المعينة على القدرة فلا معنى حينها لأن يتحدَّاهم !.

وذهب قوم إلى أن القرآن معجز ببلاغته، وهو مذهب جمهور العلماء، وأن القرآن سحر العرب منذ اللحظة الأولى واستولى عليهم بنظمه البديع وتأليفه العجيب، فقد سَمَا في بلاغته إلى الحدّ الذي عجز العرب عن الإتيان بسورة من مثله، وقد

[1] ينظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص264، ومباحث في إعجاز القرآن: ص38-41.

[2] والوجه عنده في إعجازه هو فيما حواه من مغيبات.

تحدَّاهم القرآن بذلك مدة ثلاث وعشرين سنة، فما استطاعوا وقامت الحجة عليهم، وهم أهل الفصاحة والبيان، وعلى غيرهم إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨][1].

وقال آخرون: إن إعجازه فيما تضمنه من إخبار عن المغيبات الماضية التي تقدمت منذ بدء الخلق، كالإخبار عن قصص الأنبياء والأمم السابقة، ممَّا لا يمكن أن يصدر إلا عن نبيٍّ موحىً إليه، فكيف يمكن أن يتأتَّى من أميٍّ لا يقرأ ولا يكتب ولا اتصال له بأهل الكتب السابقة؟.. وإخباره بأمور مستقبلية لا يمكن أن يطلع عليها إلا بطريق الوحي، كالإخبار عما وراء الموت مما تعلق باليوم الآخر من بعث ونشور وحساب .. وإخباره عن هزيمة الروم ثم انتصارهم بعد ذلك ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الروم: ١ – ٥]، وإخباره عن هزيمة المشركين بقوله﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٥]، وقد كان عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– يقول يوم نزلت هذه الآية: أي جمع هذا؟ فلما كان يوم بدر سمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يردِّدُها..بل وإخباره عن أمور غيبة حاضرة كالإخبار عن الله تعالى وصفاته، وعن الملائكة والجن، والموت والقبر والجنة والنار، وغيرها مما لا سبيل له– عليه السلام– إلى معرفته إلا أن يكون نبيًّا يبلِّغُ عن ربِّه –عزوجل–..[2]

ورأى قوم أن إعجاز القرآن الكريم إنما هو فيما تضمنه من معان سامية وتشريعات عالية وأخلاق فاضلة ورعاية لحقوق الإنسان، بما يضمن السعادة للأفراد والمجتمعات،..فقد "ذكر الخطابي أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ، بأحسن نظوم التأليف، متضمنا أصح المعاني من توحيد الله –تعالى وتنزيهه في صفاته، ودعائه إلى طاعته، وبيان طريق عبادته من تحليل وتحريم، وحضر وإباحة، ووعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساويها، واضعا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أحسن منه، ولا يُتَوَّهم في صورة العقل أمرٌ أليق منه، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله، ثم صار المعاندون له يقولون مرة: إنه شِعر !.. ومرة: إنه سِحر !.. "[3].

[1] ينظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان: ص262، والواضح في علوم القرآن، ص163.

[2] انظر أمثلة أخرى للإخبار بالمغيبات في القرين في: اللآلئ الحسان في علوم القرآن: د.موسى شاهين لاشين، ص207–210.

[3] اللآلئ الحسان في علوم القرآن : د.موسى شاهين لاشين، ص217.

ورأى جماعة إلى الإعجاز في القرآن من زاوية علمية فقالوا بالإعجاز العلمي، بما تضمنه من علوم مختلفة، وإشارات علمية متعلقة بالكون والإنسان والحياة، جاء العلم ليثبتها بطريق البحث والتجربة.. ولعلّ القول بالإعجاز العلمي في القرآن يتجلى في جملة من المظاهر، منها حثُّه الإنسان على التفكر والتدبر في الكون وإعمال العقل في استجلاء حقائقه وأسراره..وانسجامه وتوافقه مع الحقائق العلمية القطعية الثابتة، لأن الأصل ألا تعارض بين ما أثبته العقل السليم بالطريق اليقيني الصحيح وبين ما ثبت بطريق النقل من قرآن وسنة صحيحة، قال-تعالى-: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣]..ولكن الحذر كلَّ الحذر في هذا الاتجاه مما يمكن أن يقع خطأً من بعض المهتمين بهذا الجانب، من جري وراء النظريات العلمية الجديدة، وتلمُّسِ مَحْمَلٍ لها من آيِ القرآن الكريم ، فيتناولون الآية بما يوافق النظرية ! ويغفلون عن أمرٍ مهمٍّ، هو أن النظريات العلميةَ عرضة للتبديل والتغيير، فيكون ذلك إن تغيَّرتْ النظريةُ مدعاةً لاتِّهام القرآن بالقصور وعدم الصدق في أحكامه ومعانيه، فيحاكم القرآن القطعي في أحكامه وحقائقه إلى جهد بشري تحكمه الظروف و التجارب والأدوات[1]!

وخلاصة النظر في الأقوال الكثيرة [2] في وجوه إعجاز القرآن أن هذه الأقوال تكاد تدور حول وجوه أربعة: الإعجاز اللغوي البياني، والإعجاز الإخباري الغيبي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي [3]. هذا بالإضافة إلى القول بالصَّرفَة الباطل البيِّنِ بطلانُهُ.

وبإمعان النظر في هذه الأقوال يمكن القول إن ما ذهب إليه جمهور العلماء والدارسين للبلاغة والإعجاز القرآنيين من أن الوجه في إعجاز القرآن إنما هو بلاغته ونظمه وتفرده في أسلوب بيانه، ذلك أن الله تعالى لم يتحَدَّ العرب بأن يأتوا بمثل القرآن في مضمونه، أيًّا كان هذا المضمون، خبرا غيبيا أو تشريعا أو علما أو غير ذلك..لأن هذه المضامين ليست أصلا موضوعَ التَّحدِّي!..وإنما كان التحدي أن يأتوا بمثل القرآن في ألفاظه وتراكيبه ونظمه وأسلوب تأليفه، في أي مضمون من المضامين شاؤوا، وليجتمعوا لذلك وليستظهروا بمن شاؤوا من الإنس والجن، بل وإن كان المضمون كذبا وافتراءً ! قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [ه ود: ١٣]، وقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].. ولما حاول بعض من المتنبئين وأشباه المتنبئين كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي وسجاح بنت الحارث التميمية وغيرهم

[1] ينظر: الواضح في علوم القرآن، ص160-162.

[2] وعدّ بعضهم منها بالإضافة إلى المذكور: الإعجاز الموسيقي الصوتي والإعجاز العددي والإعجاز النفسي ولإعجاز الطبي والإعجاز الحركي..

[3] انظر في تلخيص هذه الوجوه: أبحاث في علوم القرآن غانم قدوري الحمد، ص250-252.

محاكاة أسلوب القرآن، كان ما استطاعوه أشبه بالسخف والتفاهة والهذيان والعبث، و خاب مسعاهم وارتدوا على أدبارهم خاسرين.. فقد كان إذن موضوع التحدي الذي فهموه و دُعُوا إليه هو أسلوب القرآن لا مضمونه، ولذلك حاولوا أن ينسجوا نظما كنظمه وأسلوبا كأسلوبه فعجزوا ! ولو كان في مقدور أحد من العرب أن يجاري أسلوب القرآن ويباريه، أو أن يجد قدرة على محاكاة شيء منه، لما سلكوا المسلك الصعب أمام هذا التحدي، بإشهار السيوف، بعد أن عجز البيان وتحطَّمت الأقلام..[1]

كما أن تلك المضامين من أخبار بأمور غيبية أو أمور تشريعية أو علمية أو حتى ما قاله آخرون في الوجه في الإعجاز من استعارات وكنايات وصور بيانية وبديعية هي ممَّا لا يوجد في القرآن كلِّه، فهي موجودة في بعض السور لا كلِّها، بل إنَّ منها ما هو في آيات معدودات، فهل يعني أنَّ ما لا خبرَ عن الغيب فيه من الآيات، أو ما ليس فيه إشارة علمية أو حكم تشريعي، أو ما لم يحوِ استعارة أو تشبيها.. هل يعني أن ذلك كله ليس قرآنا معجزا؟ وهذا بخلاف الإعجاز اللغوي والبياني فهو متحقق في القرآن كلّه، في جميع سوره حتى في أقصر سورة منها [2]. ولذلك فإن كل ما ذُكِر من وجوه في إعجاز القرآن، بما فيها الوجه اللغوي والبياني، هو دليل على ربانية مصدر القرآن الكريم، وصدق نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم، لكن لا ينهض منها كوجه حقيقي لإعجاز القرآن إلّا الوجه البياني البلاغي، لأن به وحده وقع التحدي دون سواه من الأوجه..قال السَّخاوِيُّ علَمُ الدِّين أبو الحسن عليٌّ بنُ محمَّد المصريُّ(-643هـ) بعد أن بيَّن الوجه المتحدَّى به والذي لا يتحقق في غيره من الأوجه التي تبقى دلائل على صدق النبوة وربانية مصدر القرآن، وإن كانت مما يعجز عنه البشر، قال: "ولكنَّ إعجاز القرآن من قِبَلِ أنه خارجٌ في بديع نظمه وغرابة أساليبه عن معهود كلام البشر، مختص بنمط غريب، لا يشبه شيئا من القول في الرصف والترتيب، لا هو من قبيل الشعر، ولا من ضروب الخطب والسجع، يعلَمُ مَن يتأمَّلُه أنه خارجٌ عن المألوف مُباينٌ للمعروف متناسِبٌ في البلاغة، متشابِهٌ في البراعة، بريئ من التكلُّف، منزَّهٌ عن التصنُّع والتعسُّف"[3].

[1] ينظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص265.

[2] أسئلة كثيره طرحها د.عبد الفتاح الخالدي حول ما كتب عن وجوه الإعجاز، وهو يثبت الإعجاز في وجهه البياني، راجعها في كتابه: الإعجاز البياني للقرآن ودلائل مصدره الرباني، ص105 وما بعدها.

[3] جمال القراء: علم الدين السخاوي، ص43-44، نقلا عن: أبحاث في علوم القرآن، غانم قدوري الحمد، ص255.

الدرس الرابع عشر

الإعجـــــــــــــــاز القرآني

ثانيا: الإعجاز اللغوي والبياني

والمقصود به بحث الجانب اللغوي والبلاغي في القرآن الكريم على مستوى المفردة والتركيب والأسلوب، والوقوف على المزية والشرف في ذلك، وتسجيل ما تميّز به الخطاب القرآني في معهود استعماله، مما لا يمكن لبشر أو يبلغه مهما كان بليغا، من خلال النظر في الاختيارات والعدولات والمناسبات بين المفردات والتراكيب والأساليب في الآي والسور..

يقول مناع القطان: "والقرآن الذي عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سَنَن كلامهم، ألفاظا وحروفا، تركيبا وأسلوبا، ولكنه في اتساق حروفه، وطلاوة عبارته، وحلاوة أسلوبه، وجرس آياته، ومراعاة مقتضيات الحال في ألوان البيان، في الجمل الاسمية والفعلية.. وفي النفي والإثبات، وفي الذكر والحذف، وفي التعريف والتنكير، وفي التقديم والتأخير، وفي الحقيقة والمجاز، وفي الإطناب والإيجاز. وفي العموم والخصوص، وفي الإطلاق والتقييد، وفي النص والفحوى..وهلمَّ جرّا.. ولكن القرآن في هذا ونظائره بلغ الذروة التي تعجز أمامَها القدرةُ اللغوية لدى البشر."[1].

هذا التفرد في اللفظ وفي التركيب وفي الأسلوب هو الذي به شهدت العرب للقرآن وعن مثله عجزت، فعن ابن عباس –رضي الله عنهما-: "أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيِّ-صلى الله عليه وسلم-فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال له: يا عمُّ إن قومَك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكَهُ، فإنك أتيتَ محمّدا لتتعرض لما قِبَلَه. قال: قد علمتْ قريشٌ أني مِن أكثرها مالاً. قال: فقُلْ فيه قولاً يبلُغ قومَك أنّك منكِرٌ له وكارِهٌ. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجلٌ أعلمُ بالشعر منِّي لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن لقولِهِ الذي يقولُ لحلاوةً، وإنّ عليه لطلاوةً، وإنه لمُثمِرٌ أعلاهُ، مُغْدِقٌ أسفلُهُ، وإنه لَيَعلُو وما يُعلَى، وإنه ليحطِّمُ ما تحتَهُ. قال: والله لا يرضى قومُك حتى تقول فيه. قال: فدَعْنِي حتّى أفكِّر، فلمّا فكَّر قال: هذا سحرٌ يُؤْثَر، يأثُرُه عن غيره، فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدثر: ١١] "[2].

---

[1] مباحث في علوم القرآن: ص266.

[2] أخرجه الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، نقلا عن: مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص266-267.

مظاهر الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم:

إن عناصر البلاغة كما ذكرها الإمام أبو سليمان الخطابي (– 388هـ) ثلاثة، لا يشرف الكلام ولا يبلغ المزية إلا بها، والناظر إلى القرآن الكريم يجده قد تميز في الجمع بينها، بل بلغ الذروة والكمال إلى الحدّ الذي بهر البلغاء والفصحاء من العرب وأعجزهم..يقول الخطابي:" وإنما يقوم الكلام بهذه الثلاثة: لفظٌ حاملٌ، ومعنىً به قائمٌ، ورباطٌ لهما ناظمٌ. وإذا تأمَّلتَ القرآنَ وجدتَ هذه الأمورَ منه في غاية الشّرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصحَ ولا أجزلَ ولا أعذبَ من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسنَ تأليفا وأشدَّ تلاؤما وتشاكلا من نظمه. وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقولُ بالتقدم في أبوابها، والترقّي إلى اعلى درجاتِ الفضلِ من نعوتها وصفاتها. وقد توجَدُ هذه الفضائلُ الثلاثُ على التفرُّق في أنواع الكلام، فأمَّا أن توجَدَ مجموعةً في نوع واحد منه فلم توجَدْ إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علما وأحصى كلَّ شيء عددا. فتفهَّمْ الآنَ واعْلَم، أنَّ القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مُضَمَّنًا أصحَّ المعاني.."[1].

وباعتماد هذا النص الجامع لعناصر البيان القرآني المعجز يمكن تلخيص مظاهر الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن في المظاهر الآتية:

1 –**الدقة في الألفاظ:**

فلا تجد لفظة في القرآن الكريم تنبو عن موضعها الذي رتِّبت فيه، وإذا جئت تنظر أي كلمة أخرى رديفة أو قريبة لها في المعنى لتحُلَّ محلَّها اختلَّ نظمُ الكلام وذهب رونقُه وجمالُه، وفي ذلك يقول ابن عطية الأندلسي(– 546هـ):"ووجه إعجاز القرآن أن الله–تعالى– قد أحاط بكل شيء علما، وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطا. فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة...والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقِّحُها حولا كاملا، ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامَّة فيبدل فيها وينقِّح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، كتاب الله لو نُزِعت منه لفظةٌ ثم أُدِير لسانُ العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد.

[1] الخطابي أبو سليمان، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق:محمد خلف الله أحمد، ود.محمد زغلول سلام دار المعارف،القاهرة، ط1976/3، ص27.

ونحن نبيِّن لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة ومَيْزِ الكلام"[1].

ولأجل هذا الاختيار الدقيق تجد الكلمة القرآنية التي تتألف منها الجمل والعبارات جامعة لكل معاني الأدبية والفنية ، متميزة بجمال وقعها في النفس واتساقها الكامل مع المعنى، حتى لكأنك تشمُّ منها رائحة المعنى المطلوب، وتلمح فيها صورة المضمون أمام العين[2].

وفي تصوير منزلة الكلمة المختارة من الكلام يقول عبد الفتاح لاشين: "فالكلمة في جمله بمنزلة الفريدة في حبِّ العقد، فلا يقع مثلُها لمخلوق، ولا يستطيع أحدٌ الإتيانَ بمثلها، ولا يكاد يقع ذو ذوق سليم وذهن مستقيم على شبهها، وإذا سقطت هذه الكلمة من الكلام، عزّ على الفصحاء سقوطُها"[3].

2 -**السُّمُو في النظم:**

ويتجلى ذلك في رصف الجمل والعبارات، وصفّ مفرداتها من حيث اتساقها وتلاؤمها، والدلالة بالموجز منها على أوسع معنى، من غيرما إخلال أو إملال، مع إخراج لهذا المعنى المجرد في صورة الملموس المحسوس ، لما يتسم به الخطاب القرآني من قدرة على التصوير والتشخيص.. [4] يقول فضل حسن عباس: "ولإعجاز البياني يرجع في لبِّه وجوهره إلى النظم، وهذا النظم ليس خاصًّا بالعرب وحدهم، والنظم هو ذلكم الترتيب الذي كان لكلمات القرآن في جملها من جهة، واختيار هذه الكلمات من جهة أخرى، ثم ترتيب الجمل والآيات في السورة، وتلك قضية كان يدركها العربي عند نزول القرآن بذوقه وسليقته، أما العرب اليوم فإنهم يدركونها بالفكرة لا بالفطرة بعد أن تفسر لهم وتبين لهم دقائقها"[5].

فالنظم الذي هو توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، كما يعبِّر عنه عبد القاهر الجرجاني(-471هـ)، سمتُ الخطاب القرآني، والمقصود به عنده الجمع في الكلام بين المزيَّتَيْن النحوية والبلاغية.. وأن المفردات لم تكن لتحصل على المزية والشرف أو تتفاضل في ذلك باعتبار استقلالها، وإنما باعتبار انضمامها إلى أخواتها في الجملة، يقول:"وهل يقع في وهمٍ وإن جَهَد، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفةً مستعملةً، وتلك غريبةً وحشيةً، أو أن تكون حروف هذه أخفَّ، وامتزاجَها أحسنَ، ومما يكُدُّ اللسانَ أبعَدَ؟ وهل تجدُ أحدا يقول: ((هذه اللفظةُ فصيحةٌ))، إلا وهو يعتبِرُ

---

[1] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2001/1، ج52/1.

[2] ينظر:صفاء الكلمة: د.عبد الفتاح لاشين، دار المريخ للنشر، الرياض، د/ط، 1983، ص13، والواضح في علوم القرآن: ص166-167.

[3] صفاء الكلمة: ص15

[4] ينظر: الواضح في علوم القرآن: ص167-170

[5] إتقان البرهان في علوم القرآن: أ.د .فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط1997/1،ج113/1.

مكانَها من النظم، وحسنَ ملاءمةِ معناها لمعاني جاراتها، وفضلَ مؤانستِها لإخواتها؟ وهل قالوا:((لفظةٌ متمكِّنةٌ ومقبولةٌ))، وفي خلافه: ((قلِقةٌ ونابيةٌ ومستكرهَةٌ))، إلا وغرضُهم أن يعبِّرُوا بالتمكُّن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبُوِّ عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلِقْ بالثانية في معناها، وأنّ السابقةَ لم تصلُح أن تكون لِفُقًا للتالية في مؤدَّاها؟"[1].

ويضرب لذلك مثالا من القرآن الكريم فيقول:"وهل تشكُّ إذا فكَّرتَ في قوله-تعالى-:﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود: ٤٤]، فتجلَّى لك منها الإعجازُ، وبَهَرَكَ الذي ترى وتسمع، أنّكَ لم تجِدْ ما وجدتَ من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمرٍ يرجِعُ إلى ارتباط هذه الكلِم بعضِها ببعض، وأن لم يعرِضْ لها الحسنُ والشرفُ إلا مِن حيث لاقَتْ الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة وهكذا، إلى أن تستقِرِيها إلى آخرها، وأنَّ الفضلَ تنَاتَج ما بينها، وحصَل من مجموعها؟ إن شككتَ، فتأمَّل: هل ترى لفظةً منها بحيث لو أُخِذت من بين أخواتها وأُفرِدت، لأدَّتْ من الفصاحة ما تؤدِّيه وهي في مكانها من الآية؟ قل: (ابلَعِي)، واعتبرها وحدَها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبِرْ سائرَ ما يلِيها..أفَتَرى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤُكَ بالإعجاز روعةً، وتحضُرُكَ عند تصوُّرِها هيبةٌ تحيط بالنفس من أقطارها تعلُّقًا باللفظ من حيث هو صوتٌ مسموعٌ وحروفٌ تتوالى في النطق؟ أم كلُّ ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟!"[2].

3 -**التفرّد في الأسلوب:**

والمقصود طريقة القرآن الكريم التي انفرد به في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، وقد تواضع العلماء قديما وحديثا وتعارفوا على أن للقرآن أسلوبا مغايرا لأساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف [3]..ولإبراز هذا التفرد والتميز نورد آراء بعض أعلام الدرس البياني في القرآن الكريم المعاصرين، ومنهم **مصطفى صادق الرافعي** الذي يثبت أن سرّ التفاوت بين أسلوب القرآن وأسلوب البشر، رغم كون المادة اللغوية واحدة لا تختلف، راجع إلى[4]:

---

[1] دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، قراءة وتعليق: محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط5/2004، ص44-45. قال المعلِّق: واللفق: الشقة من شقتي الملاءة، وهم (لفقان) ما داما متضامين، فإذا فُتِقَت خياطةُ الملاءة لا يسمَّيان (لفقين). ويطلق اسم (اللفقين) على (الصهحبين المتلازمين).

[2] نفسه: ص 45-46.

[3] ينظر: مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، ص151.

[4] ينظر هذا الملخص لرأي الرافعي في: إعجاز القرآن الكريم: د.فضل حسن عباس: وسناء فضل عباس، د/د-م-ط-ت.

أ – ما في أسلوب القرآن من قوة نسج، وإحكام في السرد، حيث إن قارئه وهو يقرؤه كلَّه لا يحِسُّ فيه بنبوة أو ثغرة، وهو ينتقل من معنى إلى آخر، ومن موضوع إلى موضوع، ومن آية أو سورة إلى أخرى..

ب –أن هذا الإحكام في الأسلوب القرآني موجود في القرآن كله، مكِّيِّه ومدنيِّه، في الطوال وفي القصار على السواء، فهو لا يختلف في تصويره اليومَ الآخر مثلا، أو حديثه عن الآيات الكونية، وهي من موضوعات القرآن المكي، لا يختلف في ذلك عنه في آيات الأحكام وتعدّدها، وهي من المدني.. وهو ما لا يوجد عند فصحاء العرب وخطبائها..

ث –القرآن الكريم نسق واحد، لا يشبه في أسلوبه أسلوب البشر الذين تنعكس أمزجتهم على أساليبهم.

وأمّا الأستاذ **محمد دراز** فيقول عن أسلوب القرآن: "لسنا ندري والله ماذا نقول لك عن أسلوب معجز في وصفه، كما هو معجز في نفسه؟ غير أننا نقول لك كلمة هي جملة القول فيه، وهي أنه تلتقي فيه نهايات الفضيلة كلُّها، على تباعد ما بين أطرافها"[1]. ولخَّص بالنظر إلى الجمع بين هذه النهايات خصائص الأسلوب القرآني في[2]:

- الإيجاز في اللفظ والوفاء بحق المعنى.
- خطاب العامّة وخطاب الخاصّة.
- إقناع العقل وإمتاع العاطفة.
- البيان والإجمال.

ويجعل **سيد قطب** القرآن الكريم في الطبقة العليا من البلاغة، ويرى تميُّزَه في أسلوبه عن أساليب البشر، لطبيعته التي من خصائصها[3]:

- تأثيره على النفوس، وكيف أن له سلطانا عجيبا على القلوب ليس للآداء البشري، حتى إنه ليؤثِّر بتلاوته المجردة أحيانا على الذين لا يعرفون من العربية حرفا!..

[1] النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن: محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، د/ط–ت، ص108

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص109–114.

[3] ينظر: في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق،القاهرة– بيروت، ط2003/32، ج1786/3–1788.

- تعبيره عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيِّز يستحيل على البشر أن يعبِّروا فيه عن مثل تلك الأغراض، وذلك بأوسع مدلول، وأدق تعبير، وأجمله وأحياه ! مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو !
- احتمال النص الواحد مدلولات متنوعة متناسقة في النص، وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء أو اختلاط في المدلولات، حيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى، ويبدو في كل مرة أصيلا في الموضع الذي استشهد به فيه، وكأنما صيغ لهذا المجال ابتداء![1]
- القدرة على استحضار المشاهد وتصويرها تصويرا بطريقة غير معهودة على الإطلاق في كلام البشر، ولا يملك الكلام البشري تقليدها!.

[1] ذكر هذا المعنى أيضا مصطفى صادق الرافعي في: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، د/ط، 2005، ص143-144

الدرس الخامس عشر

الإعجـــــــــــــــاز القرآني

ثالثا: الإعجاز الإخباري والتشريعي

سبقت الإشارة إلى هذا عند التعرض لوجوه إعجاز القرآن الكريم، ولعلّ غاية ما يمكن إثباته في هذا الموضع بيان بعض تجليات هذين الوجهين بشيء من الزيادة على المثبَتِ سابقا..

أ – الإعجاز الإخباري:

ويقصد به الإخبار عن المغيبات، وذلك من خلال[1]:

1 –**الإخبار عن الماضي** من حين خلق آدم –عليه السلام– إلى حين مبعثه–صلى الله عليه وسلم–، مما لم يكن يعرفه العرب، أو مما جاء في بعض الكتب السماوية السابقة، والتي حرفها أصحابها وزيّفوا فيها وبدّلوا، أو حتى مما تناقله القصّاصون مما له أصل لكن مع التغيير والتبديل.. فيأتي القرآن في كل ذلك بالنبإ اليقين، والخبر الصدق، لأنه من الله الأول والآخر، العليم الخبير، فيعرضه القرآن بصورته التي وقعت حتى لكأنه مشاهد يحضره ويسمعه متلقِّيه ! وما قصص آدم–عليه السلام– وولديه، وقصة إبليس وإخراجه من الجنة، وقصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء –عليهم السلام–، وقصص من أهلك من الأقوام السابقين، وسائر الأخبار ، إلا دليل على أن هذا القرآن من وحي الله تعالى لنبيه –عليه السلام– لما في ذلك من إحاطة ودقة وصدق وعدم اختلاف في العرض، وإن اختلفت المواضع، بل كثيرا من ذلك كانت تجده يهود في كتبها أو بالأحرى بقايا كتبها المحرفة وتجحده، حتى إنهم ليقولون بألسنتهم ويقرُّون بعدم علمهم بكثير مما يذكر القرآن، كما في قوله –تعالى–:﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]، إذ قالوا لما سمعوه: إن القرآن يقول لنا ما لم نقل في كتبنا ولا في عقائدنا..فهم لم يكونوا يعلمون ذلك وقت نزوله حتى أخبرهم به القرآن، وقد أثبت علم التاريخ الحديث أن بني إسرائيل، في وقت من أوقات حلولهم مصر القديمة، استحسنوا العقيدة القائلة بأن عزير ابن الله..

[1] ينظر: الواضح في علوم القرآن: ص157–158، ومباحث في إعجاز القرآن: مصطفى مسلم:، ص279–297.

ولذلك نجد القرآن الكريم بعد الإخبار بقصص الأنبياء والغابرين يؤكد بأنه غيب يوحي به إلى نبيّه، كما في قوله- تعالى- بعد قصة مريم وكفالة نبي الله زكريا-عليهما السلام- لها:﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وبعد قصة نوح-عليه السلام-:﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [ه ود: ٤٩]، وبعد قصة يوسف-عليه السلام-:﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقبل عرض قصة موسى-عليه السلام- في سورة القصص يقول -سبحانه-:﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القصص: ٤٤ - ٤٦]..

2 -**الإخبار بغيب الحاضر**: والمقصود به ما جرى زمن النبي-صلى الله عليه وسلم- من وقائع وحوادث لم يحضرها، وينزل القرآن ينبئه ويخبره بها.. ومن ذلك ما رواه الحميدي في مسنده عن جابر بن عبد الله-رضي الله عنه- بخصوص اليهود، من أن رجلا من أهل (فدك) زنى، فكتب أهل (فدك) إلى الناس من اليهود بالمدينة أن اسألوا محمدا عن ذلك، فإن أمر بالجلد فخذوه عنه، وإن أمر كم بالرجم فلا تأخذوه عنه وشريعتهم في ذلك الرجم، فأنزل الله بشأنهم مخبرا نبيه بذلك: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة: ٤١]..

ومن ذلك أنهم كانوا إذا مرّ بهم رجل من أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم- جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكرهه، يريدون إغاضته، فنهاهم الرسول عن ذلك فلم ينتهوا، فأنزل الله:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة: ٨]..

ومنه أيضا ما رواه البخاري عن ابن عباس-رضي الله عنهما- من أن الرسول-صلى الله عليه وسلم- سأل اليهود عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروا عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا

من كتمانهم، فأنزل الله –تعالى– مخبرا نبيه–عليه السلام– بذلك:﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٨]..

وأما المنافقون وكيدهم للإسلام والمسلمين، وتولي الله تعالى فضحهم في القرآن الكريم فكثير، نكتفي منه بمثالين اثنين، الأول متعلق بغزوة الأحزاب، في السنة الخامسة من الهجرة، وقد اشتد الأمر على المسلمين، وتألبت الأحزاب عليهم، ونقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله.. في هذه الحال الشديدة، ينسحب هؤلاء الذين ظاهرُهم إسلام وباطنهم كفر، ولا يكتفون بالانسحاب كما انسحبوا من قبل في غزوة أحد، بل يتعمدون البلبلة والفتنة وتفريق المسلمين عن رسول الله، ويتحججون بأعذار واهية كما فعلوا من قبل في أحد، فينزل الله فيهم قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٣]، فيخبر الله عما كان بينهم ويكشف نياتهم الحقيقية.. ولعل ما كان في حديث الإفك الذي تولاه رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه، وتبييته الأذية والخوض في عرض رسول الله–صلى الله عليه وسلم– وأهل بيته الطاهرين، ومحاولته التشكيك في رسالة الله –تعالى– من خلال الطعن في شخص الرسول–صلى الله عليه وسلم–نفسه لأبرزُ مثال عن الإخبار والإنباء، بما لم يكن الرسول–صلى الله عليه وسلم– فيه حاضرا، يقول –سبحانه–:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النور: ١١]، إلى أن قال–سبحانه–:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النور: ١٩]..

3 –**الإخبار عن المستقبل**: وذلك بالإخبار عن أمور ستقع في المستقبل، سواء بتحديد زمنها، أو بإطلاقها من غير تحديد لوقت وهو الغالب في هذا الإخبار، ومن الأول قوله–تعالى–:﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الروم: ١ – ٥]، فقد أخبر القرآن الكريم بغلبة الروم الفرسَ في بضع سنين، وكانت الروم قد هزمت من قبل، وفرح المشركون يومئذ لهزيمتهم، لأنهم الروم أهل كتاب بينما الفرس مشركون وثنيون مثلهم، ونيتهم القياس، أي: بأن يُهزَمَ المسلمون أهلُ القرآن على أيديهم وهم المشركون..فكان ما أخبر به القرآن، ووقعت المعركة بين الروم والفرس مرة ثانية، وغلبت الروم الفرس، وقد تزامنت المعركة مع غزوة الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، وما أعقبها من فتح فرح به المسلمون، وهذا الفرح هو المقصود بقوله ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾..

ومن الإخبار بالغيب المستقبلي جزم القرآن الكريم بعدم قدرة أحد على أن يأتي بسورة من مثل القرآن حاضرا ولا مستقبلا بنبرة ملؤها التحدي والقطع واليقين، قال –سبحانه-:﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣ – ٢٤].. ومنه أيضا ما أخبر به من أحكام الآخرة بخصوص بعض المشركين، من أنهم سيموتون على الكفر ويدخلون جهنم، ولو لم يكن علما يقينيا محيطا بالماضي والحاضر والمستقبل، لكان لأحدهم كأبي لهب أو الوليد بن المغيرة أو أبي جهل أن يقول: أنت يا محمد تزعم أني باق على الكفر، ومخلد في النار، وها أنا ذا أعلن إسلامي ! فيثبت به عدم صدق ما جاء به من خبر ! ولكن شيئا من ذلك لم يحدث..قال –تعالى- بخصوص الأول: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد: ١ – ٥]، وبخصوص الثاني:﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾[المدثر: ١١ – ٢٦]..وعن أبي جهل:﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ [العلق: ٩ – ١٩]...

ومن الإخبار بالغيب المستقبلي أيضا قوله –تعالى-:﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٥]، وقوله:﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقوله:﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الحجر: ٩٥ – ٩٦]..

ب -الإعجاز التشريعي[1]:

الحديث عن الإعجاز التشريعي في القرآن هو في الأصل حديث عن نظام متكامل ارتضاه الله –تعالى- لعباده المؤمنين، تناول الإنسان بمجموعه عقلا وروحا وجسدا، عقيدة وشريعة وخلقا، فردا وأسرة ومجتمعا، أمة ودولة، ترتبط

[1] يراجع هذا العنصر في: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص275–280، ومباحث في إعجاز القرآن: مصطفى مسلم، ص249–278، والواضح في علوم القرآن: ص158–160.

ببعضها البعض وبغيرها من الأمم والدول، فصّل فيه –سبحانه– من الأحكام وقعّد لها، بما يضمن استمراريتها واستيعابها للزمان والمكان، وبما يضمن الخير والصلاح لمن التزمها في الحال والمآل، فكان ما شرع –سبحانه– بحق تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين، وصدق ربنا إذ قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة: ٣].. فنظام الإسلام نظام رباني شامل ومتكامل ومرن، يحمل عناصر البقاء والعطاء في ذاته، وتجليات الإعجاز فيه تتمثل في كونه:

1 -ينطلق أولا من الفرد باعتباره اللبنة الأولى للمجتمع، فيهتم بتربيته، ويبدأ بتحريره قبل كل شيء من كل عبودية غير عبودية الله –تعالى– الذي خلقه، ويجعل تحقيق العبودية له الغاية من خلقه ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فيخلِّصه بذلك من سلطان الهوى والخرافة والوهم وسائر القيود التي تكبِّله، فتأسره ولا تجعله يتحرر وينطلق ليتفاعل مع سائر عناصر الحياة والكون الذي هو فيه، والتي هي قائمة في وجودها وسيرها وحركتها على محور واحد، هو محور التوحيد الخالص لله–تعالى–: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٤]..

ولأنه متى صفت وصحّت عقيدة المرء، سلمت واستقامت تصوراته وسلوكاته في الحياة، فلأجل ذلك بقي رسول الله–صلى الله عليه وسلم– الفترة المكية كلَّها، يربي أصحابه على العقيدة السليمة والتوحيد الخالص، فلم تشرع الأحكام والقوانين إلا بعد أن تمكَّنت تلك العقيدة من قلوبهم، حتى خلت نفوسهم من حظوظ أنفسهم، فأصبحوا بذلك مستعدِّين لأن يتلقوا الأحكام والتشريعات عن الله–تعالى–، وهم في ذلك كله مرتبطون بالله وباليوم الآخر وما رتب–سبحانه– على اللزوم من جزاء وثواب، فكانت مرضاة الله تعالى غايتهم وميزانهم في كل ما عليه يقبلون أو عنه ينصرفون، وتلكم هي العبادة، وتلكم هي الغاية ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣]..

وعليه فإن أساس تربية الفرد الصالح في المجتمع إنما هو التربية الروحية أولا، التي تربط بالله وباليوم الآخر، والتي تضمن القيام بالتكاليف والتزام التشريعات، فدولة الإسلام التي أقامها رسول الله–صلى الله عليه وسلم– في المدينة، لم تقم على الأرض إلا بعد أن قامت في نفوس الصحابة، والتي كان منطلقها ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [السجدة: ١٦]، والتي استحقوا بها الجزاء الذي أخفاه الله–تعالى– فما أطلع عليه أحدا من خلقه﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧]..

وهذا الاهتمام والتناول للفرد في التشريع الإسلامي، والذي دستوره الأول القرآن، لم يحض به هذا الفرد في نظام غير نظام الإسلام، أو دستور سوى دستوره، مهما اجتهد المجتهدون، ومهما كانت حكمة الحكماء أوفلسفة الفلاسفة، لأن الخالق وحده من يقدر على التشريع للمخلوق، فأما أن يشرع المخلوق للمخلوق فلا بد من الظلم والنقص والقصور، قال–تعالى–:﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]، وقال:﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]..

2 –الانتقال من تربية الفرد إلى تربية الأسرة، لأنها نواة المجتمع، متى صلحت صلح المجتمع. ولم يحض نظام في الإسلام بالرعاية والاهتمام كما حظي نظام الأسرة، فقد سُيِّجَت الأسرة بترسانة من الأحكام والقواعد الضابطة للعلاقات السرية هي أبرز ما في نظام الإسلام، بل إن هذا التسييج يبدأ من حين التفكير بالزواج، قبل أن يلتقي الزوجان تحت سقف واحد، والغرض الحفاظ على الأنساب، وتحقيق المودة والسكينة بينهما، وتهيئة المحضن الذي فيه ينشأ ويترعرع الأولاد..فالزواج عبادة لله–تعالى– وقيام بواجب واستجابة لنظام كوني هو الأصل في الأجناس والأنواع، قبل أن يكون مجرد متعة وتلبية لشهوة، قال–تعالى–: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١].. ولأجل هذه المكانة التي أولاها الله للأسرة كان أوسعَ الأبواب في الفقه الإسلامي بابُ فقه الأسرة..

3 –وبعد الفرد والأسرة يأتي المجتمع، الذي يقيمه على أساس من العدل والميزان، في نواحيه المختلفة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.. وكفَل له من الأحكام والأدوات والهيئات والسلطات ما يضمن قيامه واستمراره، في غير ما تنازع بين تلك الهيئات والسلطات، والغاية في كل تشريع من تلك التشريعات، في مختلف النواحي، إنما هي جلب المصالح ودفع المضار في الحال وفي المآل..

وقد قرر التشريع الإسلامي قواعد الحكم الراشد القائم على الشورى ابتداء قال–تعالى–:﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨]، وقال:﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وعلى العدل﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء: ٥٨]، وعلى الأخوة ومنع السيطرة الفردية﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وعلى احترام الآخر ومحاورته وإن كان غير مسلم﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤]..

4 -كما قرر القرآن صيانة الكليات الخمس الضرورية للحياة: النفس والدين والعرض والمال والعقل، ورتّب عليها العقوبات المنصوصة، التي تعرف في الفقه بالجنايات والحدود..قال-تعالى- في القصاص: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وفي حدّ الزنا﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[النور: ٢]، وفي السرقة﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨]..

5 -ثم يقرر القرآن أحكام العلاقات الدولية في حال السلم والحرب، بين المسلمين وجيرانهم أومعاهديهم، وهي أرقى معاملة عرفتها الحضارة الإنسانية، قال الله–تعالى-:﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقال:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨]..

وهكذا يبقى التشريع الإسلامي التشريع الكامل الذي يقيم الحياة الإنسانية على أحسن صورة وأكملها، يهدف إلى إسعاد الناس في الدارين، وسيظل تشريعه دليلا على مصدرية ربانيته، وهو التشريع الذي لا ينكر أحد أنه أحدث أثرا في التاريخ في فترة من فتراته، وسيحدث الأثر نفسه متى ارتضاه الناس منهجا ودستورا للحياة.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

1 -الانتصار للقرآن: الباقلاني القاضي أبو بكر بن الطيب، تحقيق:د.محمد عصام القضاة، دار ابن حزم، بيروت،ط2001/1.

2 -إتقان البرهان في علوم القرآن: أ.د .فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط1997/1.

3 -الإتقان في علوم القرآن (وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني): السيوطي، مطبعة حجازي، القاهرة،د/ط–ت.

4 -أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري: د. محمد زغلول سلام، تقديم: د.محمد خلف الله أحمد، مكتبة الشباب، المنيرة، ط1/د.ت.

5 -أصول الفقه الإسلامي: د.محمد مصطفى شلبي، الدار الجامعية، بيروت، لبنان، ط1983/4.

6 -إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني: صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار، عمان،الأردن، ط2000/1.

7 -إعجاز القرآن الكريم: د.فضل حسن عباس: وسناء فضل عباس، د/د–م–ط–ت.

8 -بحوث في أصول التفسير ومناهجه: فهد عبد الرحمان بن سليمان الرومي، مكتبة التوبة، الرياض، السعودية، ط1419/4هـ.

9 -بحوث منهجية في علوم القرآن: موسى إبراهيم الإبراهيم، دار عمار، عمان، الأردن، ط1996/2.

10 – البرهان في علوم القرآن: الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط1984/3.

11 – التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط2002/16.

12 – تفسير التحرير والتنوير:ابن عاشور محمد الطاهر، الدار التونسية، تونس، د.ط/1984.

13 – تفسير القرآن العظيم:ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمر،تحقيق:سامي بن محمد السلامة،دار طيبة،الرياض، ط1999/2

14 – التفسير اللغوي للقرآن الكريم: د. مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، د.م، ط1432/1هـ.

15 – التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي،مكتبة وهبه، القاهرة، ط2000/7.

16 – تهذيب وترتيب الإتقان في علوم القرآن:محمد بن عمر بن سالم بازمول، دار الهجرة، الرياض، السعودية، ط1992/1.

17 – ثلاث رسائل في الإعجاز، الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1976/3.

18 – الجداول الجامعة في العلوم النافعة: محمود بن عبد العزيز الفداغ،دار الدعوة، الكويت، ط1991/5.

19 – خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، د. محمد رجب البيومي ، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية، السنة الثالثة، العدد الثاني والأربعون.ديسمبر،1971.

20 – دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، قراءة وتعليق: محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط2004/5.

21 – دلائل النبوة: الأصبهاني موفق الدين، أبو القاسم إسماعيل بن محمد، تحقيق: مساعد بن سليمان الحميد، دار العاصمة، الرياض، السعودية، ط1412/1ه.

22 – الزيادة والإحسان في علوم القرآن: ابن عقيلة المكي، مركز البحوث والدراسات، الشارقة، الإمارات، ط2006/1.

23 – سير أعلام النبلاء: الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2001.

24 – صفاء الكلمة: د.عبد الفتاح لاشين، ضمن سلسلة من أسرار التعبير في القرآن، دار المريخ للنشر، الرياض، د/ط، 1983

25 – علم أصول الفقه: عبد الوهاب خلاف، دار الزهراء، الجزائر، ط1993/2.

26 – علم القراءات نشأته وأطواره وآثاره في العلوم الشرعية: نبيل بن محمد آل إسماعيل، مكتبة التوبة، الرياض، السعودية، ط2000/1.

27 – علوم القرآن: عبد الله محمود شحاته، دار غريب، القاهرة، د/ط–ت.

28 – علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه: د.عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي، ط1981/1.

29 – علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير، محمد صفا حقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2004/1

30 – فنون الأفنان: ابن الجوزي، تحقيق: د.حسن عتر، دار البشائر الإسلامية،ط1987/1.

31 – في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بيروت–القاهرة، ط1986/12.

32 – في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق،القاهرة– بيروت، ط2003/32.

33 – اللآلئ الحسان في علوم القرآن، د.موسى شاهين لاشين: دار الشروق، القاهرة، ط2002/1.

34 – لسان العرب: ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، ط1414/3هـ، ج128/1-129.

35 – لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير:د. محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1990/3.

36 – مباحث في إعجاز القرآن، د.مصطفى مسلم ، دار المسلم، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1996/3.

37 – مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط1977/10

38 – مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1985/15.

39 – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسي أبو محمد عبد الحق بن غالب، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2001/1.

40 –المعجزة الخالدة: د.حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر الإسلامية، بيروت،لبنان، ط1994/3.

41 – مناهل العرفان في علوم القرآن: الزرقاني، محمد عبد العظيم، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي،د/ط–ت.

42 – مورد الظمآن في معرفة علوم القرآن: صابر حسن محمد، الدار السلفية، بومباي، الهند، ط1984/1.

43 – النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن: د. محمد عبد الله دراز،دار القلم، الكويت،(د/ط–ت)

44 – الواضح في علوم القرآن: د. مصطفى ديب البغا، محي الدين ديب مستو،دار الكلم الطيب–دار العلوم الأنسانية،دمشق، سوريا، ط1998/2.

45 – الوجوه البلاغية في توجيه القراءات القرآنية المتواترة: محمد احمد عبد العزيز الجمل،أطروحة دكتوراه (غير منشورة)،كلية الشريعة، جامعة اليرموك، أربد، الأردن،2005.

46 – http//www.alukah.net

فهرس المحتويات

- مقدمة 02
- مفاهيم وتعريفات 03
- تاريخ القرآن:..... 07
  - أولا: نزول القرآن.....07
  - ثانيا: جمع القرآن وترتيبه..... 11
  1 -جمع القرآن.....11
  2 -ترتيب سور وآيات القرآن..... 15
- مكونات النص القرآني:.....19
  - أولا: السورة- الآية- الكلمة 19
  - ثانيا: القصة القرآنية..... 23
- سياقات النص القرآني:..... 27
  - أولا: السياق السببي 27
  - ثانيا: السياق المكاني 32
  - ثالثا: السياق التراتبي 37
  - رابعا: السياق التداولي..... 41
- مناهج التفسير ونقدها: 47
  - أولا: التفسير والتأويل..... 47
  - ثانيا: التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي..... 54
  - ثالثا: التفسير اللغوي..... 61
  - رابعا: التفسير البياني والأدبي..... 70
- الإعجاز القرآني:..... 75

- أولا: الإعجاز اللغوي والبياني 82
- ثانيا: الإعجاز الإخباري والتشريعي 88

- قائمة المصادر والمراجع 95
- فهرس المحتويات..... 98